الأعمال الكاملة

المجلد الثانى

الوهم والحقيقة

□ مهمة غير عادية

□ الزعيم

□ الجميع يربحون الجائزة

تأليف

أبو المعاطى أبو النجا

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٣

الاخراج الفنى : مرفت النحاس

الوهم والحقيقة

من العسير أن أحدد اليوم أو اللحظة التى بدأت ألاحظ فيها ذلك الشىء ، ومن المؤكد أنه لم يكن فى البداية بهذا الوضوح ، وأن احساسى به لم يكن بهذه القوة !

ويوم اثر يوم أصبح ذلك الشىء الذى لا أستطيع حتى الآن أن أمسك به فى يدى الحقيقة الوحيدة التى تملأ كل حياتى تملؤها بالمرارة والأسى ، وتملؤنى بالعجز .. العجز عن التعامل مع هذه الحقيقة كما يمكن أن يتعامل الناس مع حقائق حياتهم ، لأن هذه الحقيقة التى تثقل قلبى بالألم لاتزال تفلت من أصابعى كالشعاع !

وما جدوى أن أتذكر اليوم أو اللحظة ، وهذه الحقيقة تبدو لى الآن وكأنها قديمة قدم علاقتى بزوجتى ، حتى لقد حاولت كثيرا أن أتذكر وجه زوجتى القديم فلم أفلح ، ولم تفلح حتى صورها القديمة فى أن تعيد الى ذاكرتى تلك الملامح التى ألفتها طوال خمسة أعوام هى عمر زواجنا ، ومع ذلك فلست أملك دليلا الى هذه الحقيقة

سوى وجه زوجتى ·· ذلك الوجـه الذى بدأت ملامحه تشى بهذه الحقيقة كما تشى الحقول بمقدم الربيع ، لماذا لا أنطق بهذه الحقيقة بنفس البساطة التى لاحظتها بها ! لماذا لا أقول أننى نظرت فى وجه زوجتى ذات يوم أو ذات لحظة فتأكد لى أنها تحب ·· نعم زوجتى تحب ·· تلك هى المسألة !

ليس من الصعب أن تدرك أن زوجتك تحب ، فنظرة المحب لا تخطئها العين ، انهـا نظرة قريرة هانئة ، وهناؤها آت من هناك من الأعماق ، لا صلة له بأحداث حياتكما اليوميـة · وقد لا تثق بذلك فى أول مرة ، قد تظن أن لهذه النظرة القريرة الهانئة أسبابا فى حياتكما ، وقد لا تعنى بمعرفة السبب ، وقد تخمنـه اذا كنت لا تعرفه ، ويمضى يوم وآخر ، وتختلف الظـروف والأسـباب ، ويتغير ايقاع الحياة اليومية ، ولكن النظرة ذاتهـا ·· النظرة التى تمسح أحداق العيون بالفرح ، والتى تومض ومضـا خفيفا ولكنه دائم كومض النجـوم ، تلك النظـرة التى تحيل العينين الى نبعين دائمين يرويان ملامح الوجـه كله بذلك الرضا العذب وبمسحة من الحلم لا تختلف بين النهار والليل هذه النظرة تبقى دائما رغم تغير الظروف والأسباب ، ولكنها أبدا لا تبقى كشىء ثابت جامد منعزل عن حياتكما ·· انها تشارك فى هذه الحياة ، تشارك فى أفراحها وأحزانها ، تغسل الأحزان والمتاعب والمشكلات وتتجاوزها أحيانا وكأنها لاتراها ، تقفز فوقها كعصفور يتخطى الأعشاب والمستنقعات ، وتلتمس الأفراح والمبـاهج ، تلتقطها كما يلتقط العصـفور الحبات الغـائرة فى قلب التراب والحصى تلتمسها التمـاسا كأنما لتبرر نفسها ، وكما تلتمس الشعلة أنفاس الهواء لتبقى مشتعلة دائما · !

انها تشارك فى هذه الحيـاة ولكنها أبدا لا تندمـج فيهـا ، ولا تنتمى اليها ، فولاؤها الحقيقى لأعماق القلب الذى تصدر عنه ،

ويمضى يوم وأيام وشهور ويتأكد لك أن هذه النظرة تخضع لدورة أخرى مجهولة ، ولايقاع آخر لا صلة لحياتكما به !

انها أحيانا تتألق وتترنم وترقص وكأن ثمة لحنا مجهولا تستقبل وحدها أنغامه الشجية ، وأحيانا تشرد وتخبو كأنما تطارد النغم الشجى الهارب أو تخشى أن يسمعه أحد ، فهى تنكسر عليه وتكاد تغلق دونه أبوابها الرقيقة التى كانت مشرعة وأحيانا يلفها قلق حزين غامض فتصبح أو تمسى مقروحة هامدة ليوم أو أيام يعود بعدها الصفاء والضياء ، ولكنها لا تفقد أبدا مسحة الحلم الجميل الرقيق الذى يغلف الأسى والفرح معا .

ويتأكد لك يوما بعد يوم ما قد تكون (لبعض الوقت) فى شك من أمره ، وهو أن هذه النظرة تخضع لدورة أخرى مجهولة تدور فيها زوجتك مع شخص آخر لا تراه ولا تعرفه ، ولكنك تؤمن بوجوده دون أن تكون فى حاجة الى دليل من أى نوع آخر !

وقد يكون لك مثلى صديق من النوع الذى لا تتحرج أن تفتح أمامه قلبك ، وقد تكون مثلى من النوع الذى يحتاج الى شهور طويلة من العذاب حتى يجد الشجاعة على أن يبوح له بمثل ما بحت به ومهما يكن نوع صديقك فغالبا ما سوف يتهمك بالجنون ، وبأنك مريض بالوهم ، وبأنك من النوع الذى يخلق لنفسه آلاما يتعذب بها حين لا يكون هناك ما يعذبه ، خاصة اذا كان هذا الصديق يعرف زوجتك قبل ذلك ، ويقدر على أن ينتزع من حياتكما عشرات الأمثلة التى تؤكد حبها لك ووفاءها !

آنذاك سوف تندم مثلى على أنك بحت له بما لا ينبغى أن تبوح به لمخلوق . !

وقد تفكر للحظات أنه قد يكون هو نفسه ، ذلك الصديق ، من تحبه زوجتك ، ولكن بالنسبة لى ، لم أفكر فى ذلك مرة واحدة ،

قد تتهمنى بالغفلة خاصة اذا اعترفت بأننى لا أملك دليلا على ذلك سوى شعورى الخاص الذى أصبحت أثق به ثقة كاملة ، ذلك الشعور الداخلى الشخصى وحده هو الذى يؤكد لى أن زوجتى تحب ، وأن من تحبه ليس هو الصديق الذى فتحت له أبواب قلبى !

وقد ينجح هذا الصديق فى أن يضع بذور الشك فى ايمانك بمعنى تلك النظرة القريرة الهانئة !

ولكن هذه الشكوك سرعان ما تتبدد حين تكتشف أن زوجتك كلها وليست نظرتها فقط أصبحت تخضع لتلك الدورة الغريبة المجهولة وعبثا تحول مرة أخرى أن تجد فى حياتكما مصدرا لتلك الطاقة العارمة وتلك الحيوية النادرة التى تعصف بزوجتك وهى فى الواقع تعصف بك ، تلك الحيوية التى توشك أن تخرج زوجتك من جلدها ومن ثيابها ، والتى تجعل كل شىء فى بيتك وفى حياتك يتمرد على اطاره ويتجدد ، كل شىء فى بيتك وفى حياتك يتنفس بهذه الحيوية ويتحرك بها وينعم بآثارها ، الزهور والمفارش والستائر وقطع الأثاث وثياب الأولاد وحتى ثيابك أنت وقبل كل شىء ثياب زوجتك ، كل شىء يتجدد ويتأنق ويبرق ، ولا يستقر فى حال أو مكان ، تلك الحركة الدءوب المرحة المتغيرة فى بيتنا جزء من تلك الحركة الغامضة التى تهدر فى قلب زوجتى ، تلك الموسيقى التى لا أعرف كيف تضبط زوجتى وقت ارسالها فى محطات الراديو وتلك الأغنيات الهامسة التى أصبحت تترنم بها هنا وهناك وهى تتحرك كالفراشة بسرعة وبخفة لا يتطلبهما شىء !!

وهذه الرقة التى هبطت فجأة كالملاك ، هذه الرقة التى تتحدى كل أنواع الغضب وتصبر على شقاوة الأطفال ، وسخافة الجيران ، ولا أقول سخافتى فقد استلت زوجتى فى براعة مذهلة كل ما يمكن أن يجعل منى شخصا سخيفا ، لم تكن يوما كما هى فى تلك الأيام سماحة ولطفا ومحبة ٠٠ أجل محبة ٠ ! كأن ثروة هائلة من

العواطف قد هبطت على زوجتي من السماء ثروة يستحيل اخفاؤها ، ويستحيل أن تحتفظ بها ، ولا نبذل منها ، ويستحيل أن تشعر وأنت تأخذ نصيبك منها أنك صاحبها أو أنك تستحقها ولكن كيف ترفض أو تتمرد ؟

زوجتي تحب ، تلك هي الحقيقة الوحيدة التي تواصل نموها الضاري في بيتي ، تحت سمعي وبصري وفي فراشي ، أصبح لزوجتي جمال المحبين ، وهو جمال غريب ، ونادر ، جمال لا يعبأ بالوقت ولا بالثياب ولا بالأسباب لا يعبأ بالراحة أو التعب ، بالصحة أو المرض ! جمال يتوزع على الروح والجسد وعلى أوقات النهار والليل ، في العيون والكلمات والمشاعر والارادة والفكر ، جمال قادم من هناك .. من شعور المرء بأن الحياة ولا شيء أقل .. الحياة تريده وتتمناه وتعبده وتختاره دون غيره طريقا تعبره الى المستقبل ، الى الخلود تتحدى به الموت والذبول وكل النهايات !

جمال يصدر عن الثقة بالنفس ليصنع الثقة بالعالم ، يصدر عن الشعور بالكمال ليصنع الكمال في الحياة ، جمال مكتسح جارف مقتدر يرغمك على رؤيته والاحساس به وأكثر من هذا يرغمك على الاعجاب به وحبه والتماسه رغم يقينك المروع أنه ليس منك وليس لك ، وأنه يدين بوجوده لشخص آخر لا تراه رغم وجوده !

زوجتي لها ضحكات المحبين ، وهي ضحكات صادرة من القلب تلتمس أوهى الأسباب لتصدر في قوة ونقاء وحين تنتهي الأسباب تبقى هي قوية وصادقة تخلق أسبابا بفائها خلقا ، وترعاها كما ترعى أم مقتدرة وحيدها ، زوجتي لها سعادة المحبين ، وهي سعادة أبية راسخة ذات كبرياء ، وذات مسام كالفلين تمتص كل شيء ، وتفيض على كل شيء وكل أحد ، لاشيء يمكن أن يتهدد قدرتها على الأخذ والعطاء ، لا شيء سوى حزنها الخاص ، وهو حزن

مثلها مجهول المصادر ، لا أحد يمكنه أن يعتذر له أو عنه وحين يجيء ، يتقنع بالأمراض النسائية المجهولة المعلومة وبالأحلام والرؤى ، لا شيء يفضحه سوى ذبول العيون ، وساعات الأرق ، وكميات الطعام الناقصة ، والحكايات التى تروى باقتضاب عن مشكلات فى العمل ومضايقات فى الطريق .. !

من المستحيل أن تحتمل أنت أو أنا أو أى مخلوق هذا كله دون أن تبحث عن صديق ، دون أن تخلقه خلقا .. ودون أن تفكر فى أية عاقبة ، أو ندم !

ولم أشعر بالمفاجأة حين قال لى صديقى الذى لا أتردد فى أن أفتح له قلبى !

ـ سوف تجن .. أراهن أنك سوف تجن !

ـ ولهذا ابوح لك .. حتى لا أجن !

ـ ولكنك تعشق الجنون .. تسعى اليه .. تريده !

ـ ما أقوله لك حقيقى تماما .. !

ـ أنت لا تريد أن تعرف الحقيقة .. الواقعة .. لو أردت أن تعرف فهناك ألف طريقة .. ولكنك لا تريد ، نعم لا تريد !
ودون تفكير قلت له : قل لى طريقة واحدة !

ـ يمكنك أن تلاحظ سلوكها مع أصدقائك ، وتلاحظ أيضا سلوكهم معها ..

ولم أقل له اننى فعلت ذلك من قبل ، لم أقل له اننى لاحظت حتى سلوكها معه ، مع ثقتى الكاملة بأنه هو بالذات لا علاقة له بهذه المسألة !

لم أقل له أنه أصبح لزوجتى ذكاء المحبين ، وهو ذكاء قادر ملهم ، فهى توزع اهتمامها على الجميع فى عدالة ، وكأنها تحبهم جميعا بنفس المقدار ! وحتى لو أخطأت مرة فأى معنى للزيادة أو النقصان ، فى تلك المرة !

لم أقل له أنه من الجائز أنها تحب زميلا فى العمل ، أو أن حبا قديما قد بعث فجأة ، لم أقل له أننى لاحظت وتابعت ومضيت فى كل الطرق التى يمكن أن يشقها العقل والظنون والهواجس ، وانني وجدتها جميعا طرقا مسدودة ، يسدها ذكاء زوجتى المحبة ، وربما أنها ككل الطرق التى يشقها العقل وحده يمكن أن تتسع لألف احتمال واحتمال !

لم أقل له انني سوف أضيع ·· وسوف أفقد يقينى كله لو تخليت عن ذلك الشعور الداخلى الذى يتغذى بما لا يحتمل الشك ، بما لا يقدر سواى على الاحساس به ، وعلى رؤيته !

وفوجئت بصديقى هذه المرة ·· فوجئت به يقول لى وكأنما اهتدى الى حل · !

ـ حاول أن تفاجئها مرة ·· المهم عنصر المفاجأة ·· قل لها مثلا وأنتما تتناولان الطعام ·· والحديث يدور حول أى موضوع « سناء ·· أنت تحبين ·· » ولم أرد ··

واستطرد صديقى : المهم أن تلاحظ رد الفعل ·· المهم ما يمكن أن تكشف عنه تداعيات الحوار ·· المهم أن ·· » ·

وصمت صديقى ، ويبدو أنه لم يلاحظ الا مؤخرا رد الفعل بالنسبة لى · !

وبذلت جهدا لكى يستمر الحوار بيننا ·· شبه طبيعى ··

وحتى لا يشعر صديقى بما يدور فى داخلى ! ولكن هل نجحت فى ذلك ؟؟

وفى الحقيقة أنه لم يدر بينى وبين صديقى أى حوار حقيقى من قبل كنت واحدا من اثنين مؤمنا أو مجنونا ، وكلاهما لا يقدر على الحوار ... وكنت قبل ذلك كله قد أخفيت عن صديقى أخطر جزء فى قصتى .. !

وربما لو أخبرته به لما قدم اقتراحه البرىء أو الماكر ، والذى يدينه بقدر ما يبرئه ..

كان مثل هذا الحوار المقترح قد حدث بينى وبين زوجتى حدث بالفعل .. الغريب أننى كنت أريد أن أستعمل نفس كلمات صديقى ولكن حين بدأت الحديث مع زوجتى وجدتنى أقول :

ـ سناء ... أنا أحب ...

وكمن يمثل الدهشة قالت :

ـ أعرف .. !

ودهشت انا بحق هذه المرة :

ـ تعرفين ماذا ؟

ـ أنك تحب .

قالت محاولا أن أمثل دور المشاكس .

ـ ناقص أن تقول انك تعرفينها ..

ـ أعرفها طبعا .. !

ـ مـن ؟

ـ أنـا ·· !

ثم لم أشـعر بسوى ملمس ذراعيها الناعمتين وشعرها الغزير يعجزانى عن أى حـوار ·· وبريق عينين سـعيدتين الى الحد الذى لا تسمحان فيه لشخص أو شىء أن يفسد هذه السعادة ··

وجاهدت لكى أقول فى سذاجة مرعبة :

ـ لماذا لا تأخذين المسألة بجد ··

ـ طبعا آخذها ·· أنت تحبنى ·· أليس كذلك ؟

ـ وأنت ، قلتها بلا وعى ·

ـ أحبك !

ـ ماذا تريدين ؟ ·· قلتها وأنا أحاول أن أفك وثاق الذراعين برفق ··

ـ أنت ؟ ·· قالتها وهى تعيد احكام الوثاق برقة ··

ـ الآن ؟

ـ نعم · !

ـ أنت ···

ولم أكمـل عبارتى ·· لم يكـن ثمة معنى لشىء ولا حتى لما تريد ·· وحتى حين أصبحنا شخصا واحد ·· رغبـة واحدة ·· جنونا واحدا ·· كنت أثق كما لم أثق من قبل بأن زوجتى تحب ·· تحبه هو ·· ذلك الشخص الآخر المجهول الذى لا أعرفه ·· حتى وهى بين ذراعى تغمض عينيها على صورته ·· لتراه ·· لتعتقد أنه هو ما تلمسه ما تحس به ·· حتى فى لحظـة الصدق الأعظم كنت أتوقع أن تنطق باسمه ، ولكنها لم تنطق حتى باسمى ··

كانت تنطق باسم الحب وحده .. وكانت تتوجه له .. وتصلى فى محرابه ..

أكان من الممكن أن أروى له .. لصديقى هذه القصة .. ولكنها هى يمكن أن ترويها لمن تحب .. ومع أن العقل وحده هو الذى يتصور أن الخطأ الشنيع أو العبقرية الفظيعة هى التى تدفع صديقى لو كان هو من تحبه زوجتى .. الى تقديم هذه النصيحة لأنها تصلح دليل براءة بقدر ما تصلح دليل اتهام !

فان ثقتى فى براءة صديقى بعد تقديم هذه النصيحة لم تهتز تلك الثقة التى لا تعتمد على شىء أكثر من شعورى الخاص الذى يتأكد لى كل يوم أننى سأضيع اذا تخليت عنه مع أنه يمكن أن يقودنى الى الجنون ..

ولكن الجنون الحقيقى لا المتوقع هو الذى كان فى انتظارى حين فوجئت باختفاء صديقى .. كنت أبحث عنه فى كل مكان يمكن أن يذهب اليه ، وحتى بعد أن أخبرنى جيرانه أنه سافر دون أن يعرفوا الى أين ؟ ظللت أبحث عنه وأنتظر عودته !

كنت أود أن أؤكد له ثقتى فيه ، وثقتى فى براءته ، كنت أود أن أبوح له بما لا أقوى على البوح به لغيره .. كنت أود أن أكمل له القصة التى شهد بدايتها ثم بدا وكأنه ملنى أو مل النهاية ، أو ضاق ذرعا بالحوار من جانب واحد .. !

كنت أود أن يشاركنى اليقين بأن زوجتى تحب ، وبأنها يعيش فى هذه الأيام آلام المحبين . !

وبأنه يجب أن يثق فى طريقتى لأننى لو تخليت عنها فسوف لا أملك دليلا واحدا على براءته !

ولكن صديقى رغم انتظارى لم يعد .. ولست أدرى متى يعود ؟ وحاجتى الى صديقى لا يمكن أن تنتظر ، فلتكن أنت صديقى ومنقذى من الجنون ، وشاهدى على ما يمكن أن يصبح له غياب صديقى من معنى بعد أن أصبح لزوجتى آلام المحبين !

فى البداية لم تفزعنى آلام زوجتى كانت هذه الآلام جزءا من تلك الدورة التى ترتبط فيها زوجتى بذلك الشخص الآخر الذى تحبه ! كانت جزءا من السعادة والمرح والنشوة .

وكنت أتوقع بين لحظة وأخرى أن تتوارى الآلام المجهولة المصدر فجأة ، كما جاءت فجأة !! ولكن أحزان زوجتى بدت وكأنها لا تبغى الرحيل !

عقلى وحده هو الذى يصر أن يلتمس علاقة ما بين صديقى الذى لا يجىء وأحزان زوجتى التى لا ترحل !

عقلى وحده هو الذى دفعنى ذات لحظة لأن أقول لها لزوجتى :

ـ شريف لم يعد يزورنا .. !

ـ الغائب له عذره ..

ـ متى عرفت أنه مسافر ؟

ـ لا أعرف ان كان مسافرا أم لا .

ـ أيمكن أن يكون هنا ولا يجىء ؟

ـ كل شىء ممكن !

نعم .. كل شىء ممكن لو أننى ظللت أفكر فى المسألة بهذه الطريقة ..

لو أننى تخليت عن مشاعرى الخاصة التى تؤكد لى براء
صديقى ، وأن زوجتى تعانى فى نفس الوقت · آلام المحبين ··

لم يضننى شىء مثل محاولة زوجتى أن تكتشف لحزنه
أسبابا كل يوم ··· كان بحثها عن الأسباب يكلفنى بأن أبحث
بدورى عما يثبت كذب هذه الأسباب !

حزن زوجتى لا ينتهى ، ومحاولاتها تجهد محاولاتى
وصديقى الغائب لا يعود !

ـ سناء ·· أنت حزينة !

ابتسمت زوجتى ابتسامة فضحت حزنها ··

ـ أنت تعرف الأسباب ! قلتها لك ! ·

ـ نعم ·· ولكن هل تستحق كل هذا ؟

ـ جائز أنها لا تستحق ·· لكن ··

زوجتى أصبحت شبحا ، وليس من المعقول أن أنتهز هذ
الفرصة لأحقق انتصارا رخيصا على هذا الشبح ، ولكن هل من
الممكن حقا أن أحرز هذا النصر ·· هل من الممكن أن أظفر من هذ
الشفاه الشاحبة باسم الرجل الذى تحبه ؟

لو أنها تعرف أن كل ما أريد أن أعرفه هو أن هذا الرجل ليس
صديقى ·· ؟ ترى هل تغضب أم ترضى ؟

لو أننى حاولت الآن بالحيلة أو بالقوة مع هذا الشبح الذى
كان يوما زوجتى ·· لانتفضت عن قوة هائلة لتحتفظ الى الأبد
باسمه ·· نعم هذا ما تنم عنه الملامح الشاحبة الهزيلة المصرة
ستبقى وحدها التى تعرفه وتحبه وتحزن من أجله !

هل أعتذر عن ضعفى أم عن ضعف زوجتى ، كلانا غارق فى ضعفه ، فى أحزانه الخاصة ، كلانا يدرك آلام الآخر من طرف خفى فلست أظن أنها حتى الآن وبعد كل محاولاتى لاتدرك أننى أدرك !

كلانا يتهاوى تحت مطارق ثقيلة ·· تسحقه وتمزقه ·

ورغم ذلك فكلانا وحيد تماما ، منعزل عن الآخر ، تعجز الآلام المشتركة عن أن تقيم بيننا جسرا ··

ربما ما يربط بينى وبينها الآن خيط دقيق من الشفقة المشتركة فلا أحد غيرها ولا أحد غيرى يدرك معنى الهزيمة التى تحيق بنا معا ·· !

شىء واحد هو الذى أتخيله وأتمناه ، أن ترحل أحزان زوجتى لبعض الوقت·· أن عود لها سعادة المحبين واقتدارهم ·· آنذاك سوف ألتمس مسدسى الصغير الذى تخفيه قبضة يدى لا لأقتلها فهذا ما لا أفكر فيه ، لكن لأرغمها ·· أرغم كبرياءها واقتدارها على أن يبوحا باسمه ، باسم الرجل الذى لا أزال أومن بأنه ليس صديقى · !

أحيانا أعتقد أن هذا الهدف الصغير هو كل ما أعيش من أجله أن عرف ما لا يستحق المعرفة ، وأحيانا أعتقد أننى لا أخشى شيئا مثلما أخشى أن تعود لزوجتى سعادة المحبين واقتدارهم ، لأنها آنذاك سوف لا يرهبها شىء ، ولا حتى فوهة مسدسى الصغير ، ما أخشاه وما أتوقع حدوثه أنها سوف تضن بسرها الغالى ·· وسوف تواجه الموت من أجله ·· وربما أنها لن تواجهه أبدا ، فان قتلها سوف يعنى بالنسبة لى أن أقتل بيدى الدليل الوحيد الذى يمكن أن يؤكد يوما ما براءة صديقى · ! وصدق مشاعرى ، وبراءتى من الجنون ·

لو عاد صديقى اليوم لفتحت له قلبى كما أفتحه لك ·· ولكنه لا يريد أن يعود ·· لا يريد أن يشارك فى هذه اللعبة التى تقتل

لاعبيها جميعا ·· فهأنذا ألمح فى عينيك أنت ·· يامن اتخذته لبعض الوقت بديلا لصديقى ألمح نفس الاتهام الذى كان يوجهه لى ، اتهاما بأننى لا أريد أن أعرف الحقيقة ، أو أسعى لها ، وأننى أسرع الخطى فى طريق واحد لاغير سوف ينتهى بى الى الجنون ·· ألمح فى عينيك هذا الاتهام ، ولكننى أرفضه منك ، كما رفضته منه ·· وأستميحك أن تسمع قصتى حتى النهاية ·· !

***

فصديقى حتى الآن لم يعد من رحلته الغريبة ·· ولكن أحزان زوجتى هى التى بدأت ترحل ·· نعم بدأت ترحل ·· يجب أن تصدقنى فى هذا ، فهذا أمر لا يحتمل الكذب ·· هذا أمر أنا مصدره الوحيد ويجب أن تصدقنى ·· وجه زوجتى القديم الذى لم أتعذب بشىء مثلما تعذبت بمحاولة تذكره يعود ·· الملامح القديمة ، لزوجتى تعود ·· نظراتها وضحكاتها وسعادتها وأفراحها وصوتها وضعفها وأحزانها ·· تعود لتصبح جزءا من حياتنا اليومية ·· تتسق معها وتتآلف ، تنبع منها وتصب فيها ، تعود دون طلقة رصاص ، دون اكتشاف حقيقة الرجل الآخر الذى كانت تحبه ، والذى حل ضيفا على حياتنا بعض الوقت ، تعود كسيرة حزينة لا تبعث فى نفسى حبا أو كراهية أو شفقة أو حقدا ، تعود كما ذهبت ، وأنا بلا دور ، أو لعله كان لى دور الخائف العاجز المروع ·· ذهبت دون أن أملك لها منعا ، وتعود دون أن أملك لها رفضا أو قبولا !

عادت الى بيتنا كما كان ، والى أولادنا الذين يكبرون ويتطلعون وتخفى عيونهم أكثر من سؤال عما يجرى فى هذا البيت · يكبرون ويمضون سراعا نحو سنوات الحب والألم والنشوة والوهم والحقيقة !

أما أنا فسأظل أنتظر عودة صديقى الغائب الذى يمكن أن تجد أنت لغيابه ألف معنى .. أما أنا فسوف أنتظره لأننى واثق من براءته .. وأثق من قدرته على اثباتها ، ولا مفر لى من صداقتك حتى يعود صديقى !

ألمح فى عينيك نظرة ارتياب وكأن نهاية القصة لم تقنعك بشىء .. أو لعلك لم تقتنع بعد بأنها قد انتهت .. ! وهذا بعض حقك ، ولكنى لا أسمح لك لحظة واحدة بأن تشككنى فى براءة صديقى ، فلو سمحت لنفسى بهذا الشك فعليك أنت أن تشك فى هذه القصة كلها من البداية حتى النهاية ! فى كل ماورويته لك !

أسمعك تهمس بأن جنونى مؤكد ، ولست أطلب منك سوى أن تتريث قليلا فى اصدار هذا الحكم القاسى فمن يدرى ياصديقى .. فقد تفتح عينيك ذات صباح لتكتشف بدورك أن زوجتك تحب !

***

مقهى الفردوس

ألقى نظرة على ساعة الحائط ، لانزال أمامه ساعة كاملة قبل أن يصبح قادرا على أن يلتقط أنفاسه فى هدوء ، وأن يغمض عينيه فلا تختفى أنوار العالم ، بل ترق وتصفو ، ويتجرد الظلام من الخوف ، ولا يصبح لجميع الأصوات فى أذنيه ايقاع القدم حين تتلصص أو تفر !

أما الآن ولا تزال ثمة دورة كاملة أمام تلك الذراع المكسورة فى ساعة المقهى التى تبدو وكأنها العين الوحيدة التى تبصر سره فليس هناك أخطر من أن يغمض عينيه للحظة ، أو يدع مخاوفه تخفق تحت جلد وجهه ، فتلمحها العيون العديدة التى تجثم فى كل ركن يظنه خاليا ، واذ ذاك لاتنتهى أبدا تلك الساعة التى ينتظر بعدها خلاصه !!

لمثل هذا الموقف تصدر صحف المساء ، فهى تصلح قناعا لوجه خائف فى مكان عام ! « عزيز » هو الذى أصر على المكان العام ..

قال بلهجة لا تحتمل الجدل : انتظرنى هنـاك فى مقهى الفردوس !

وحين لمح دهشـته البالغة ·· تابع فى اصرار : أجـل نفس المقهى الذى نسـهر فيه كل ليـلة ، يجب ألا يتغير شىء عن مجراه الطبيعى حتى لا يتسرب الشك الى أحد ، سأدخل من الباب الرئيسى ثم أتجـه ناحيـة التليفون لأحدث فيه أى شخص أى حديث ، ثم أخرج وكأن حديث التليفون هو السبب ، بعد خروجى بعشر دقائق على الأقل تلحق بى عند نهاية الجسر الذى يعبر النهر ، وسـيكون الليل كله فى صـالحنا ونحن نهرب من المدينـة ! ثم تمهل قليـلا وتقبضت ملامحـه القوية واختلجت برفيف من الكبريـاء المنـداة بالعاطفة قبل أن يتابع :

ـ واذا بلغت الساعة الثانية عشرة ولم أحضر ·· فقد يكون معنى ذلك أننى وقعت فى قبضتهم واذ ذاك يمكنك أن تمضى وحدك ، فى نفس الطريق الذى رسمته لك واثقا من أننى مهما حدث لى لن أكشف عن صـلتى بك ! (كان وهو يتكلم يوحى لـه بتلك الثقة العظيمة التى فقدها فى كل من حـوله) · وسـيكون أمامك الوقت الكافى للهرب ، وستكون نجاتك عزائى !

ولكن العيب الوحيد لصـحيفة المسـاء ، أنها فى الوقت الذى تصبح فيه قنـاعا لوجـه خائف ، تصبح قناعا أكبر للمقهى كله ، وللباب الرئيسى ، وللتليفون ولعين الساعة الوحيدة التى تبصر سره ، وللداخلين والخارجين !

لم لا يطرح جانبا مخاوفه وأيضا صحيفة المساء ؟ لم لا يمضى حتى النهاية فى العمل بنصيحة صديقه « عزيز » فيشارك الأصدقاء فى المقهى موائدهم وأحاديثهم ؟؟

« الهجوم خير وسيلة للدفاع » كان هذا العنوان الجانبى فى صحيفة المساء ، الذى لم يقصد به المعلق أكثر من وصف الطريقة التى فاز بها الفريق الأزرق ·· !

كان هذا العنوان هو حكمة الساعة الملهمة بالنسبة له، فانتصار الفريق الأزرق ·· أفضل مناسبة للحديث الذى سيهتم به أنصار الفريق وخصومه على السواء ، والمقهى كالعادة لا حديث له الا عن الكرة ، وهو حديث يبرر شتى الانفعالات والحركات العصبية ، ومن خلاله يبدو كل شىء فى اطاره الطبيعى !!

لم لايبدأ فيحدق فى الوجوه التى يخشى أن تحدق فيه ، ويمطر بالأسئلة أولئك الذين يخشى فضولهم ، هكذا كان يبدو فى الليالى السابقة ، ولا يجب أن تختلف هذه الليلة عنها ، وهى فى الحقيقة لاتختلف الا اذا لاحظ أحدهم الحقيبة التى يخفيها تحت المنضدة وحتى هذه الملحوظة لن تكون ذات بال !!

ومن السهل أن يبرر لهم وجودها معه ، واذا أصر أحد أصدقائه على فتحها متخذا من المزاح سبيله الى ذلك فمحتوياتها لاتثير الشكوك كتب ، ثياب ريفية يفضل لبسها فى البيت ، و (ألبوم) صور يشغلون به عن كل شىء فهو يضم صورهم جميعا ولن يصدقوا أن تلك كانت وجوههم وهم طلبة فى الجامعة ، وأن هذه الكلمات المكتوبة خلف ـ الصور هى حقا ما كانوا يحلمون به ويفكرون فيه

المهم أن يبدأ الآن محاولة جادة لأن يندمج معهم فى الحديث ولو اقتضى الأمر أن ينتقل الى أقرب منضدة ، لكن حتى هذا لابد من التمهيد له ·· بنظرة أو ابتسامة أو كلمة يلقى بها هناك أو هنا !!!

فى الليالى الماضية ورغم كل همومه لم يجلس منفردا هكذا ..
وبدأ يدهش لهذه المسألة ، ناسيا أنه كان سعيدا بها منذ لحظات ،
وأنه مهد لهذا الموقف حين راح يسرح بنظراته فى سقف المقهى
متأملا دوائر (النيون) القوية ، محدثا ذراع الساعة المكسورة ،
مضيعا جميع الفرص التى سنحت له أثناء دخول أصدقائه واحدا
بعد الآخر ليجلسوا هنا وهناك فى جوانب المقهى ، والآن هل
جاء دورهم ليحبطوا محاولاته فى التودد اليهم ؟

لكن هل هم حقا يقصدون ذلك ! بعضهم يشيح عنه ، وبعضهم
يرد على تحياته بتحيات مثلها لا أكثر ، وجميعهم يتفرقون فى جوانب
المقهى صانعين دائرة هنا ومثلثا هناك ولكنه الآن يكتشف ومنذ بدأ
محاولاته الفاشلة فى التقرب منهم ، يكتشف أن شيئا ما يربط بين
هذه الدوائر والمثلثات شيئا غير نظراتهم وابتساماتهم .. شيئا كان
يبدو له بلا معنى ولكنه مع الوقت بدأ يكتسب معنى مخيفا ـ .. !

فالدوائر والمثلثات المتباعدة تقترب حين تمتلىء الثغرات
الموجودة بينها بالقادمين وهكذا تصبح الدوائر المتفرقة دائرة محكمة
حول منضدته لا يستطيع أن ينفذ منها الا اذا ربت على كتف أحدهم
قائلا :

ـ أتسمح ؟

واذ ذاك قد يسأل جادا أو هازلا ، ودون أن يتحرك من
مكانه .

ـ ألا يزال الوقت مبكرا ؟ وهذه الحقيبة لماذا هى معك فى
هذه الليلة ؟ وقد تتحسسها يده ، وتتلاشى الحدود بين الجد والدعابة ،
وتختلط النوايا الحسنة بالشريرة واذ ذاك قد تحدث أشياء لا تخطر
ببال أحد !

ومنذ وقت وهو يخشى مثل هذه الأشياء ، يخشاها منذ بدأت الحدود تتلاشى وتنعدم ، ولكنه واثق من شيء واحد هذه المرة ، هو أنه لو حدث شيء كهذا ، وتأكد له أنهم كشفوا أمر هروبه فلابد أن يقاومهم حتى الموت ، وأن ينفجر فيهم كقنبلة ، وقبل أن يتمزق الى آلاف القطع الصغيرة ، لابد أن يسمعوا جميعا رأيه كاملا فيهم ، وفى جلساتهم بمقهى الفردوس وفى حياتهم بمدينة الشمس التى يدنسونها بوجودهم فيها !

لابد أن يقفز فوق أول منضدة تعترض طريقه ويصرخ فى الجميع : « يا أصدقائى أو يا من كنتم كذلك ! يا زبائن مقهى الفردوس جميعا !

تعرفون كم كنت أحبكم ، وحين جئت من قريتى منذ سنين وجلست فى هذا الركن ، لم يكن فى جيبى أكثر من ثمن فنجان واحد من الشاى وحين شربته انتشيت به ، كأسعد رجل فى العالم لأننى أراكم بعينى وأسمعكم ولأننى سوف أصبح ·· » ·

وفتح باب المقهى الزجاجى الذى لم تنحرف عنه نظراته حتى وهو يلقى خطبته · ودخل « غريب » وتلاقت نظراتهما ، واستقرت فى أعماقه تلك النظرة الثلجية التى حياه بها « غريب » وانتهت تماما رغبته فى اكمال خطبته كانت ساق المنضدة تصطدم بساقه فى ايقاع مرتعش دائم ، وعبرت خلايا رأسه أمنية شاحبة بأن يكف « عزيز » عن تعذيبه بتأخره وأن يأتى فى موعده وأن يلحق به فى سلام ودون أن يكون فى حاجة الى القاء خطبة من أى نوع ·· ! ·

كانت النظرة الثلجية التى حياه بها « غريب » تقترب منه فى خطى ثابتة كانت نظرة مستديرة مثل رأس « غريب » ، وأرنبة أنفه ، وأطرافه كلها ، كان « غريب » يعطيه دائما هذا الاحساس بأنه أمام دائرة لا يعرف متى تبدأ ومتى تنتهى ؟

وأكدت له النظرة الثلجية المستديرة أن انفجاره ذلك سيكون مضحكا ومثيرا للرثاء وأن كل ما يجرؤ على قوله فى لحظة يأسه تلك لن يدفع بأية اختلاجة الى تلك الحدقة الجامدة المستديرة ، وأن زبائن المقهى بما فيهم أصدقاؤه قد انتهوا جميعا الى تلك الحالة التى لم يعد بمقدور شىء (عدا الكورة) أن يثير حماستهم أو دهشتهم !!

النظرة الثلجية تتوقف عند أقرب منضدة له ، « وغريب » يجلس اليها دون أن تتحول عنه نظرته ، انه يواصل تحيته متجاهلا تجاهل الآخرين له ، ومتجاهلا أكثر اهتمامهم بقدومه ورغبة كل منهم فى أن يشرف منضدته باختيارها .. ! .

النظرة الثلجية تتحول مع القرب الى ابتسامة لها قدرة النقود على أن تترجم الى أى شىء !

ـ هل قرأته ؟

كان « غريب » يوجه اليه السؤال وأصبعه القصيرة المستديرة تشير الى عنوان فى صحيفة المساء « كرة القدم لماذا أصبحت اللعبة الأولى التى يحب العالم أن يتفرج عليها ؟ » .

كان العنوان ثابتا ، وفى كل مساء كانت الصحيفه تنشر اجابة واحد من رجال الفكر أو الفن أو العمل !

ولأول وهلة لم ير فى السؤال سوى فرصة مواتية تبرر انتقاله الى المنضدة المجاورة والاندماج فى الحديث .

ـ لم أقرأه بعد .. ولكن يبدو ..

وهم بالانتقال ولكن اشارة حاسمة من يد « غريب » أبقته فى مكانه .

ـ أرجوك .. اقرأه أولا ثم تعال نثرثر حول الموضوع ؟

وعادت الابتسامة التى يمكن أن تكون اعتذارا أو سخرية أو تلميحا الى .. (لا .. لا .. مستحيل) لكن أى شىء هنا مستحيل سوى الشعور بالثقة والأمن ؟ لماذا لم يوجه هذا السؤال فى أية ليلة سابقة ؟ لم فى هذه الليلة ؟ وفى مثل ومضة البرق بدا كل شىء واضحا وفى مكانه ، كيف بدأت علاقته بعزيز ؟ بثرثرة حول هذا السؤال ، انتهت بهما معا الى ضرورة الهرب فى تلك الليلة . ولاشك أنه أمر مثير للغاية وشائق أن تنتهى هذه العلاقة بثرثرة مماثلة حول نفس السؤال ، ثرثرة مع غريب هذه المرة ! وليس هناك من هو أكثر من غريب براعة فى أن يبدأ حوارا قذرا ينتهى بكشف الموضوع بأكمله هنا وفى المقهى ، واذا كانت النهاية قد أصبحت قريبة والى هذا الحد ، واذا كان غريب قد اختار لها هذا الجو المسرحى فبمقدوره هو أن يضيف اليها لمسة ساحرة ، وماذا يخسر القتيل ؟ لا شىء ! ولاشك أن غريب سيتوقع كل شىء سوى أن أسمعه نفس الأجوبة التى سمعتها من عزيز أجل نفس الأجوبة .. فى الوقت الذى يتوقع أن أنكر فيه حتى صلتى بعزيز وبنفس اللغة الغامضة اللزجة التى تقول كل شىء ولا تقول شيئا أبدا ، ومن يدرى فقد يكون هنا فى المقهى آخرون لهم نفس موقفى ، وقد يفهمون ما فهمته من عزيز ، وقد يتحركون جميعا فى لحظة واحدة ليعلقوا « غريب » فى مدخل المقهى فى رباط عنقه !

داعبته راحة حلوة كتلك التى يعرفها المرء وهو فى أوج الأمل أو اليأس ، راحة ممزوجة بنشوة كتلك التى تسلك اليه حين كان يستمع الى عزيز وهو يعلق على سؤال الكرة اللعين ، أيمكن أن يأتى عزيز فى الدقائق العشر الباقية ؟ ان مجرد قدومه سوف يبدد من المقهى كل الأوهام والمخاوف ، وفى الدقائق الباقية يمكن أن يتظاهر بقراءة المقال حتى لا يفجر الموضوع بأكمله الا بعد أن

يتأكد من أن عزيز لن يأتى الى الأبد ، وعبثا حاول أن يقرأ الهراء المكتوب فى صحيفة المساء كانت أجوبة « عزيز » التى يستعد ليقذف بها فى وجه غريب وفى المقهى كله تتدفق على رأسه ، وبصوت عزيز نفسه القوى الرائق المرير ، وأطل وجه عزيز بملامحه البارزة والهادئة ليس من باب المقهى الذى كان ينتظره منه بل من عين الساعة التى كانت تبصر سره ، وبالتحديد من بين ذراعى الساعة اللتين تقتربان فى بطء ، ويضغطان على رقبته التى بدت وكأنها ستسقط بالتأكيد حين تلتقى الذراعان فى الثانية عشرة تماما ! ٠

وسبح المقهى كله فى ضوء شاحب ، وتحولت الرؤوس الى مجرد ظلال تقترب وتتباعد ولم يعد يسمع غير صوت عزيز أو يبصر غير وجهه ، ليلتها كان الوقت مساء كهذا المساء ، وكانت الصحيفة تواصل نشر تعليقاتها وهمس عزيز وهو يطوى الجريدة ٠٠ كانا قد خرجا لتوهما من المقهى ومشيا معا فى طريق شبه خلوى ٠

ـ تتابع هذه التعليقات ؟

ـ أحيانا ٠

ـ وما رأيك ؟

ـ بعضها معقول ٠

ـ يظهر أننى أقرأ دائما البعض الآخر !

ـ هل لديك تفسيرات أخرى لاهتمام الناس بالكرة ؟

ـ نعم ٠

وأعطى كل اهتمامه لعزيز الذى واصل حديثه وسيره :

ـ كرة القدم هى المعركة الوحيدة التى تخوضها وأنت تعرف بوضوح الذين معك والذين ضدك ٠

ثم هدأ من سيره وأضاف مبتسما !

وتبقى لآخر لحظة فى المعركة وأنت تعرف ذلك !

لحظتها ارتجف ·· كان الجو باردا ·· لكنه كان يعلم سبب ارتجافه ·· شعور غامض وملح بأن عزيز بصدد أن يتكلم عن أشياء لا تمت بصلة لكرة القدم ·· ! وتحقق من هواجسه حين التقت عيناه بعينى عزيز فى نظرة خاطفة وحين سأله :

ـ لهذا السبب وحده ؟

كان عزيز يستطرد فى سيره وحديثه أيضا :

ـ وهى المعركة الوحيدة فى العالم التى ينظمها القانون ، والتى يحرص الطرفان فيها على أن يسود القانون ويحترم ، لأن احترامه يعطى أحسن فرصة للمنتصر والمنهزم على السواء !

وقتها كاد يصرخ فى وجهه : ما الذى تقصده ؟ ما الذى تريده ؟

ولكن عزيز كان مندفعا فى حديثه فلم يترك له أية فرصة :

ـ والملعب هو المكان الوحيد الذى يمكنك أن تتحقق فيه من سيادة القانون ·· فهو من ناحية مكشوف وثمة حكام يرقبون اللاعبين وجمهور يرقب الحكام ·· وكل شىء أمام عينيك كل شىء واضح ذلك الوضوح النادر الذى لا وجود له فى غير الملعب ·· الجيد والردىء ·· الصواب والخطأ ·· ومهما يكن دور المصادفة فالردىء لا يغلب مرتين !

وقتها صرخ مقاطعا : أنت لا تتحدث عن كرة القدم ·· أنت تعنى ··

ولكن عزيز كان مندفعا تلك الاندفاعة التى تحدث مرة فى حياة الانسان فلا يمكنه بعدها أن يتوقف أبدا ·

ـ فى الملعب لا مكان للخديعة ، أتسمعنى ؟ لأول مرة لا يكون فى طوق انسان أن يخدع أحدا غير خصومه ، لأول مرة يستطيع الناس أن يروا الصواب والخطأ كليهما على حدة !

ولأول مرة لاتختلط الأهداف بالوسائل وأيضا لاتفترق ..

ولأول مرة تلتقى الحرية والنظام ودون أن يضحى بأحدهما من أجل الآخر ، وفى الملعب تعرف دائما دورك ومكانك ، ويمكنك أن تفهم مرة واحدة على الأقل لماذا يصفق الناس لك ولماذا يصفرون ؟ وفى لحظة احتدام المعركة والعواطف تساعدك الخطوط والدوائر وألوان الملابس وصفارة الحكم وفوق ذلك كله أصوات الجماهير !

ـ أقسم أنت تقصد الأوغاد القذرين .. أصدقاءنا فى مقهى الفردوس !

ـ أنا لست أقصد شيئا !

قالها عزيز مستدركا وهو يهدىء من سيره .

ـ حذار .. لا تحاول أن تكون مثلهم .. سأجن لو قلت أنك لا تقصدهم ، سأجن هل تصدقنى ؟

ـ أنت مجنون فعلا .

ـ لا .. وأقسم لك !

ـ المجنون هو من يقول كلاما له معنى محدد ، ثم لا يقنع بهذه المصيبة فيحاول تأكيده !

ـ لا يهمنى من أكون .. المهم أنك تقصدهم .

ـ وما جدوى ذلك لو كان صحيحا ؟

ـ جدواه أننى لست وحدى .. ولست مخطئا فى احساسى بهم ، وأن ثمة أمل .

ـ فى أى شىء أيها الأبله .. نسيت أن العالم كله يهتم اليوم بالكرة .

ـ وفى أى مكان ستجد بعضهم يهتم بالحياة !

ـ نسيت أننا كنا هنا نهتم بها أيضا فما الذى حدث ؟ هل تذكر ؟

ـ لست أدرى .. لقد ظللت طويلا لا أعتقد أن ثمة فارق بين لعبة الكرة ولعبة الحياة ، ومضى وقت طويل قبل أن أكتشف أننى الأبله الوحيد الذى لا يزال يحترم قواعد اللعب ، وينتظر عبثا صفارة الحكم حين تحدث الأخطاء ، ويستنجد بجمهور لا وجود له !

وحين بدأ كل شىء يفقد معناه .. النصر والهزيمة .. الصواب والخطأ .. الحرية والنظام ! وحين بدأت أبحث عن شخص يشاطرنى الفزع ، شخص يهتم لما يحدث كانت ملاعب الكرة تهتم بهم وترعى شئونهم جميعا ، وكانوا هناك يتفرجون ويهتمون ويفزعون كذلك ! وتأتى أنت الآن .. لتحاول أن تعبث بى !

ـ أنت الذى سوف تعبث بنا لو ظللت تهذى على هذه الشاكلة !

ـ وهل كان من الضرورى أن تعذبنى قبل أن ..

فقاطعه عزيز :

ـ لا أظن أن عذابنا الحقيقى قد انتهى .. انه سيبدأ الآن فقط !

ـ لماذا ؟

ـ اذا كنت حقا تفكر فى الخروج من هذا المأزق !

صوت « عزيز » القوى الرائـق المرير يكف عن التـدفق وعنقه يتدلى من بين ذراعى الساعة حين أصبحتا دراعا واحدة قوية تشير الى انتصـاف الليل وتشير أيضا الى أن لحظة الصدام المرو قد حلت ، والضوء الشـاحب الذى كان المقهى يسبح فيه ، تسحف أنوار (النيون) القوية ، وظـلال الرؤوس تتحدد قسماتها وتبرز « وغريب » ينتظر بلا شك فريسته وهى تحاول أن تفلت ، ولكن لا يدرى أنه يمنحه فرصة العمر حين يبدأ مزاحه الثقيل وتثرثر حول الكرة ، سيقول رأى عزيز كاملا ، ومن يدرى فقد تفجر هذ الكلمات أرض المقهى كلها ، وهكذا يثأر لعزيز فى نفس اللحظة . لكن هل انتهى أمر عزيز حقا أم أن شيئا آخر عاقه ؟ والى متى يظل ينتظر أن يرفع « غريب » رأسـه لتبدأ المعركة الأخيرة ؟ غريب لا يرفع رأسه ، والوقت يمضى وبعض الزبائن يخرجون ، والحلقة المحكمة تتكسر هنا وهناك ، هل أخطأ فى تقدير شىء أم أن المسألة لاتعدو أن تكون لعبة قذرة من « غريب » يتسلى بها ؟ .

ليس من صالحه أن يضيع الوقت ، ولو خرج الزبائن كلهم لفقدت لعبته أثرها الخطير .. وجه غريب الناعم المستدير يواصل الهمس لمن حوله دون أن يفصح عن شىء ، دون أن تبدو عليه لمحة انتظار لشىء .. لم لا يحاول التسلل من بعض الثغرات فى الحلقة ؟ وليترك حقيبته هـذه المرة حتى لا يشك أحـد فى أنه لن يعود ، وهكذا يرد على لعبتهم القذرة بلعبة مثلها ؟ واذا كان ثمة خطأ فى تقدير الأمـور فلا معنى لأن يتسرع بجلب المشـاكل على رأسه ؟

واجتذبته أقرب ثغرة فى الحلقة وفوجىء بأن أحـدا لا يعيره أقل التفاتة ، ولم يصدق أنه أصبح خارج المقهى ، وأسف لأنه ترك

الحقيبة ، وتباطأ قليلا حتى لا يثير الشكوك وقبل أن يمضى فى طريقه فوجىء بصوت غريب يلحق به ، ويمسك به !

ـ أليست هذه الحقيبة لك ؟ ولماذا نسيتها ؟

ثم تابع وعلى شفتيه نفس الابتسامة التى تشبه النقود :

ـ أليست هذه الحقيبة لك ؟ لماذا نسيتها ؟
ستحضر مساء الغد ... أليس كذلك ؟ احتفظ بحقى فى الحديث معك حول نفس الموضوع !

ومد يده وأخذ الحقيبة دون أن ينطق بكلمة ، خيل اليه أنها أثقل مما كانت ولكنه كان منهارا ، ربما هذا هو السبب .. كان يدرك أن صمته وكلامه سواء فى القدرة على فضح أمره .. ربما يعرفون كل شىء ، وربما لا يعرفون شيئا ، وأنقذه « غريب » بعودته الى المقهى !!

***

مشى أولا فى بطء ، مخترقا نفس الطريق التى وصفها عزيز له وكلها شه خالية شبه مظلمة ، طريق تملأها الظلال والأوهام .. الطرق تسلمه للجسر ، والجسر يسلمه للضفة الثانية ، والضفة الثانية تسلمه الى طريق أوسع يمكنه أن يجرى فيه ، وهو مغمض العينين ، وفجأة يتجرد الظلام من الخوف ، ويصبح للقدم الهاربة ايقاع القدم التى ترقص ، والهواء يصبح أكثر رقة وعذوبة ، وهكذا تتحقق نصف النبوءة ولا يتحقق نصفها الآخر ، وتنقسم الحقيقة المفردة ، ويأتى نور الصباح فى موعده ويسقط المكان من الحساب ، ويبقى للوقت وحده القدرة على اغماض العيون وتفتيحها !

ـ من أنت ؟

كان فلاح شاب يسأل الأفندى الذى يفرك عينيه على رأس

حقله وكل ملامح الفلاح تؤكد أنه مستعد لتصديق أى كلمة يقولها الأفندى الذى صحا فجأة !

ـ أنا ٠٠ لن تصدقنى اذا قلت أننى فلاح مثلك ٠٠ !

ـ الفلاحون لا يلبسون هذه الثياب !

ـ انتظر قليلا٠٠فى حقيبتى مثل ثيابك ! يجب أن تصدقنى !

وراح يفتح الحقيبة ليخرج منها الثياب الريفية ، وفى سكون ذلك الصباح انطلقت من فم الشاب الريفى صرخة فزع مدوية ٠٠ حين أبصر فى الحقيبة جثة قتيل ٠٠ !

أما هو الذى كان يبصر جثة « عزيز » فى نفس اللحظة فلم يصرخ ولم يجد لديه الرغبة أو القدرة على أن يفعل أو يقول أى شىء !

وحين اجتذبت الصرخة فى هذا الصباح كل من كانوا فى الطريق الى حقولهم ، وحين تتابعت الحلقات والدوائر الفزعة المروعة كان ثمة سؤال يدور ويتنقل :

ـ من هو ؟

ـ لا أحد يعرف ثم أصبحت الاجابة : انه غريب !

يناير ١٩٦٧

الـزيارة

هبط القرية بعد الغروب ، فى الوقت الذى يتحول فيه الناس على البعد الى أشباح لا تتضح ملامحهم الا فى اللحظات الخاطفة ، التى يخترقون فيها أشرطة الضوء التى تقطع ظلام الشوارع أمام الدكاكين القليلة المتناثرة فى القرية .

وأمام تـلك الدكاكين راح يسرع الخطى هـربا من ذلك الفضول الذى تواجه به القرية أبناءها النازحين كلما عادوا ، ففى هذه المرة كان حريصا على أن يحيط زيارتـه للقرية بالـكتمان ، وحتى أسرته لم تكن تعرف شيئا عن المهمة التى جاء من أجلها ، والتى يجب أن يفرغ منها قبل أن يطرق باب بيته فى نهاية القرية ، وفى تلك الليلة ترك الطريق الرئيسى وانحـدر فى حارة ضـيقة يسـودها الظلام ومع أنه قد مضت سنوات على آخر مرة دخل فيها هذه الحـارة فلم يبد أنهـا تغيرت كثيرا ولا تزال قدمـاه ترتفعـان وتنخفضـان فى نفس التـلال والحفر الصغيرة ، ولم تعد تهمه كثيرا أطياف المـارة ، التى حولها الظلام الى أشباح والتى تصر على تحيته

دون أن تعرفه فيرد عليها دون أن يعرفها كذلك ، ولم يكن يخشى الأشباح الناطقة ، كان يخشى شبحا واحدا يمضى دائما فى صمت ، ويجوب شوارع القرية فى أية ساعة من الليل أو النهار ، الشبح الذى قدم من أجله ، والذى كان يحرص فى نفس الوقت على ألا يلتقى به .

وكان واثقا على أنه قادر على تمييزه رغم الظلام ، لن يتبين ملامحه لأول وهلة ولكنه سيتعرف على مشيته .. مشيته المتصلبة .. مشية شخص لا يبالى بما حوله ، كأنه لا يدركه ويندفع بكل جسمه الى غاية لا تبين لغيره ويبدو أنها لا تبين له فهو منذ أعوام يواصل مشيته تلك ، فى البداية كان يواصلها وسط حشد من الصغار والكبار ، وانصرف الكبار بعد أن سئموا اللعبة ، ثم مالبث الصغار أن ملوها كذلك بعد أن كف هو عن الاستجابة لعبثهم ، أصبح يواصل الصمت والسير معا ، رغم اختفاء الحشد ، فقد كان لا يزال قادرا على تمييزه ، فقامته المتصلبة مشدودة ، داخل ثوب واحد يخفق حولها صيفا وشتاء ، ثوب لا تخفى قذارته التى ضاعفت من سمكه وجعلته متصلبا هو الآخر وفى أعلى الثوب ينبت رأس مغطى بشعر غزير يحيط بالوجه كله ويضاعف من حوله الظلام .

منذ عام فى آخر زيارة للقرية ، وقف شعر رأسه حيث خيل اليه أنه توقف عن السير ، كان الوقت نهارا وكانت عيناهما قد التقتا فى نظرة عابرة ، أحس على أثرها أن ملامح الوجه الثابت فى أعلى الثوب ترتعش بالتحية وأن حاجز الصمت يتكسر على اختلاجات الوجه الذى يوشك أن يقطع فى لحظات خمسة أعوام كاملة ، ليجد نفسه فجأة أمام صديقه القديم « حسين » وأن حسين سوف يفتح له ذراعيه بنفس الطريقة القديمة ، ليجد نفسه غارقا فى غابة الشعر الكثيف وأن حسين سيطلب منه (بعد أن يضع ذراعه تحت ذراعه) أن يأتى معه ليمارسا هوايتهما المفضلة ، السير وحيدين

على الجسر الممتد بين الحقول ، يتكلمان ويحلمان أحلاما تبدأ دائما بعد أية شجرة ينطبق عندها الأفق ، لحظتها تصور أنه لن يقاومه ، سيمضى معه حيث يصبحان بعيدين عن الناس وسط الحقول ، وحيث يسأله صديقه أسئلة كثيرة سيكون ضمنها هذا السؤال :

لماذا تخليت عنى ؟

ـ اذا كنت قد شفيت حقا فلابد أن تذكر أننى لم أتخل عنك .. لقد فعلت الكثير من أجلك .

ـ لقد شفيت حقا ولهذا فان ما تقوله يضحكنى .

ـ ماذا كان بمقدورى أن أفعل ؟ الأطباء أنفسهم يئسوا من حالتك .

ـ أنت تصدق أن مثل هؤلاء الأطباء فى مثل هذه المستشفيات يمكنهم أن ... دعنا من هذا .. يبدو أنك لا تزال تشك فى شفائى ، ويبدو أنه لا جدوى من الحديث معك .

وانتهت اللحظة الرهيبة .. كان صديقه قد واصل مشيته المتصلبة حتى قبل أن يبدأ تلك الرحلة القصيرة ، ولكن الرحلة كانت قد بدأت بالفعل فى مكان من عقله هو ، وعبثا كان يحاول أن يوقف الرعب الجاثم بين الحقول حول طريق زراعى كان يسير فيه صديقان يتحاوران بصوت مسموع :

ـ ماذا كان يمكننى أن أصنع من أجل أولادك ؟ ليس فى قدرتى أن أصنع لهم شيئا كبيرا أو كثيرا .. أنت تعرف ..

ـ ولكنك لم تصنع شيئا أبدا ..

ـ أنصاف الحلول ، وتمزيق القدرة ، هو الذى أوصلك الى هذا الحد ، وتريد الآن أن تجرنى معك على هذا الطريق .

ـ أنت الذى دفعتنى اليه ، وقلت لى : تقدر ، وتقدر ، وتقدر ، ومع ذلك فالناس يتهموننى وحدى بفقد الذاكرة .

ـ كنت صغيرا ، ولم أبصر الهوة التى تفصل بين ظروفى وظروفك وكنت أحبك و ..

ـ والآن أنت لا تبصر ولا تحب .

وفكر أن زيارة للقرية ، لأولاد صديقه الذين يعيشون مع عمهم الوحيد ومبلغا من المال يدفع للعم الذى يعمل (ميكانيكيا) فى وابور الطحين بالقرية ولديه من الأولاد ما يزيد على أخيه ، مثل هذه الزيارة قد توقف تلك الرحلات القصيرة التى يصحب فيها صديقه حسين وسط الرعب الجاثم بين الحقول .

وفى نهاية الحارة حيث تكدس الظلام برز بيت (فتوح) شقيق صديقه ، ولم يفكر كثيرا فى الطريقة التى سيستقبله بها ، كان واثقا على الأقل من الطريقة التى سيودعه بها . انه وحده الذى يستحق المبلغ دون شك (فأم حسين) عجوز تعيش وحدها فى البيت القديم الذى كان يضم الأسرة كلها وفتوح يعولها أيضا وزوجة حسين لا يعرف الكثير عنها . سمع مرة أنها تعيش مع العجوز ، وسمع مرة أخرى أنها تعيش وحدها مع أصغر الأولاد وهى على كل حال شابة وقادرة على أن تعنى بنفسها وفتوح فيما يسمع يرعى الجميع وهم بعيدون حتى يتجنب مشاكلهم مع امرأته .

طرق الباب وتحرك فى الصالة مصباح غازى لاح ضوؤه خلال شقوق الباب الذى فتح ليبرز منه وجه ملطخ بالدقيق واتسعت الفتحة قليلا عن سروال طويل وصديرى محكم بصف لامع من الأزرار الذهبية الصدفية ودهشة عريضة وترحيب :

ـ أهلا .. أهلا .. أمين أفندى .. خطوة عزيزة ..

واهتز المصباح فى يده ، ورقصت الظلال على الحائط وبحث

فتوح طويلا عن حصير كان فى ركن الصالة ليفرشه على كنبة خشيبة عارية ، كانت الصالة هى حجرة الضيوف وأشياء أخرى كثيرة ، وحين استقر المصباح على مسمار فى الحائط بدت فى وضوح هذه الأشياء : وابور غاز ، وأوان نحاسية وملابس معلقة فوق حبل تحجب جزءا من الصالة ومن فوق الحبل جذب فتوح جلبابه ولبسه على عجل ، وهو يواصل الترحيب والدهشة ، ومن ركن الصالة جذب الوابور ووضعه بينهما على الكنبة ومن بين الأوانى استخلص عدة الشاى وكان لا يزال يرحب بأمين أفندى فتخلصت نبراته من الدهشة وأصبحت أكثر ألفة ومودة وتسلل الأطفال من خلال ستارة الملابس المدلاة يرقبون الزائر وأدوات الشاى والوابور المشتعل ويختفون ليعاودوا التسلل والظهور :

ـ أهلا ٠ أهلا ٠٠ من كان يصدق أن الوجوه تلتقى ؟

وفكر أمين أن من الأفضل أن يطرق الموضوع مباشرة وبلباقة ليخلص « الاسطى » فتوح من عبء الترحيب المتواصل ، وصمت فتوح حين بدأ أمين يتكلم وبدا وهو ينصت ويتشاغل أحيانا بصب الشاى وتقليب السكر وكأنه شخص آخر يختلف تماما عن الشخص الذى كان يرحب به منذ لحظات ، بدا عمره الحقيقى على وجهه ، ليس فقط عمر السنين ، بل عمر الجهد والعناء ، كانت التجاعيد ، وترهل الجفون ، والشحوب ، وجفاف الجلد المقنع بذرات الدقيق كانت كلها تقتحم الضوء الذى يرسله المصباح من بعيد ليزداد قليلا حين يلتقى بصوت الوابور المشتعل وكان بريق الدهشة يخفت فى عينيه مع الوقت لتتحول العينان فى نهاية الأمر الى مجرد نبعين للفضول ، وأنهى أمين حديثه اللبق بالسؤال عن أولاد حسين ، لم يكن قد رآهم ضمن الوجوه التى تظهر وتختفى خلال الستائر المدلاة ، واعتقد وقد أوضح الغرض من زيارته أن الفرصة أصبحت مواتية لمثل هذا السؤال :

ـ الأولاد مع أمهم ٠

قالها فتوح بنبرة خالية من أى انفعال ثم رفع وجهه الذى بدا مكسوا بالجمود والغموض ليلمح أثرا لاجابته فى وجه أمين الذى تساءل فى دهشة :

ـ « عطا » « وعبلة » كانا معك ٠٠ أمينة وحدها هى التى كانت مع أمها ٠٠ فما الذى حدث ؟ هل ظلمت أمهم ذلك ؟

ـ نعم ٠

قالها وهو يقدم الشاى لضيفه وبدأ يستجمع نفسه لحكاية طويلة ٠

هل تسرع أمين بكشف أوراقه ؟ ٠٠ كان يجب أن يسأل عن الأولاد أولا ؟ ولو أنه ذهب الى بيته وسأل من بعيد عن أحوالهم لعرف الحقيقة ، ولكانت الزيارة والمبلغ لأم الأولاد ودون أن يعرف عمهم شيئا عن الموضوع ومن المؤكد أن أشياء قد حدثت بين فتوح وزوجة شقيقه ، فمن المستحيل أن ترفض امرأة فى مثل ظروفها أى عون من أى انسان ، وعطا أكبر الأولاد فى الثانية عشرة من عمره وهو لا يزال فى حاجة الى عمه ، واذا كانت قصة الخلاف بينهما تهم أحدا فهى تهم فتوح الذى يريد أن يبرر أمامه موقفه ، قال أمين موحيا برغبته فى انهاء الزيارة وتجنب الخوض فى التفاصيل :

ـ فى الحقيقة أنت فعلت الكثير من أجل أخيك وأولاده ولكن مثل هذه الأمور تحدث أحيانا ٠

قال فتوح وقد فرغ لتوه من لف سيجارة اعتذر أمين عن تدخينها فراح يشعلها وعلى مهل :

ـ ومن يعرف الحقيقة فى هذا الزمن يا سيدنا الأفندى ؟ كنت أعتبر « عطا » ابنا لى ، وهو فى الحقيقة ولد نبيه ، وهو فى سنه

كان يعرف كل شيء عن الوابور ، يفك ويربط ويشحم ، كان ينقصه فقط تركيب السير وهو مهمة الكبار ولما تعلم كل شيء جاءت أمه وأخذته ٠

(فتوح يتجاوز الدفاع الى الاتهام ومع أن أمين لم يكن يحب أن ينصب نفسه قاضيا الا أنه لم يسترح لتلميح فتوح) ٠

قال متجاهلا تلميحه ومؤكدا موقفه :

ـ مهما تكن أسباب الخلاف ، فهم أولاد أخيك ولا يزالون فى حاجة اليك وأمهم وحدها لا يمكن أن توفر لهم كل شيء ٠

واندفع فتوح هذه المرة فى لهجة محمومة :

ـ هم الذين يوفرون لها كل شيء ولم تأخذهم الا بعد أن تقررت لهم اعانة من الضمان الاجتماعى لقد جريت سنين وراء هذه الاعانة لأبيهم ولهم ، ودفعت من قوت أولادى للموظفين اللصوص ٠٠ وجاءت بعد ذلك لتأخذ الأولاد ٠

ـ ولماذا لم تقل ذلك منذ البداية (شكرا للغضب الذى فتح فمك عن آخره ولا أظن حرصها على الاعانة يزيد على حرصك) ٠

قال أمين وهو يكبح خواطره ويفكر فى طريقة لانهاء الزيارة :

ـ أنت رجل طيب وكريم ولا أظنك تبالى بشيء كهذا ، واذا سمحت لى لأزور الأولاد وأمهم ويمكننى اقناعها بضرورة أن يعود عطا الى الوابور ، فهو يحتاج الى صنعة يتقنها واعانة الضمان قليلة وموقوتة ولن تنفعه ٠

ـ ولماذا العجلة يا سيدنا الأفندى ؟ لو انتظرت قليلا كان ذلك فى مصلحة الأولاد .

ـ أريد أن ألحق بهم قبل أن يناموا لأنى مسافر فى الغد .

ـ الله يحب الصابرين ياسيدنا الأفندى لو ذهبت الآن لن تقابل الأولاد .

(وجه فتوح يزداد جمودا وغموضا رغم ذرات الدقيق ، ولا يزال يملك المبادرة وجعبته ملأى بالمفاجآت ، ويبدو أن المرء ليس حرا حتى فى أن يعطى نقوده لمن يشاء ، ولابد أن يدفع ثمن تسرعه والحقيقة قد تلمح وسط الأكاذيب ، وليبارك الله فى نوبات الغضب) .

قال أمين محاولا أن يستفزه :

ـ أنت الذى قلت أن الأولاد مع أمهم .

ـ وأنت الذى فهمت أنها أخذتهم لترعاهم .

(قالها فتوح بلهجة لاتخلو من تأنيب وبطريقة حكماء الريف)

قال أمين وهو يضبط نفسه :

ـ وأين الأولاد ؟

واستطرد فتوح دون أن يهتم بسؤاله :

ـ والآن تريد أن تذهب لترمى بنقودك فى الهواء وتظن أنك تعطيهم لأولاد أخى .

ـ لم تقل أين أولاد أخيك ؟

ـ « عطا » يعمل الآن فى وابور النبراوى ، أخذته ليعمل مع الأغراب ·

ـ ولماذا أخذته ؟

وحدجه فتوح بنظرة معناها (كان يجب أن توجه هذا السؤال منذ البداية) ولكنه قال :

ـ اسألها باعته كما يبيع الفلاح زرعه الأخضر بسعر التراب ، طلبت منى أن أجعل له أجرا ثابتا ، ونسيت كل ما فعلته لها وله ؟

ـ وعبلة ؟

ـ تخدم فى منزل الرشيدى أفندى ناظر المدرسة ·

وساد الصمت ، وانسحبت الرؤوس الصغيرة التى اجتذبها الصياح من خلف ستارة الملابس المدلاة ·

وتبددت حلقات الدخان التى اجتذبها فتوح فى غضبه ···

(هذه أخبار لا تحتمل الكذب ، والغريب أنها ليست غريبة ، والطريق الى الأولاد يلتوى ويتعقد، والأدلاء لا يتخيرون عن بعضهم ، ولا سبيل الى التراجع ، والحقيقة تبين ولكنها مظلمة ، والزيارة التى أعتقد أنها تضع النهاية للرحلات القصيرة المرعبة تبدو أكثر رعبا ، رغم أنه لا يزال فى بدايتها ··) ·

ـ وما الذى تراه مناسبا يا سيد « فتوح » ؟

قالها أمين بلهجة المستسلم الذى لم يبق لديه سوى الفضول ·

ـ أنت لم تعرف مافى ضميرى ياسيدنا الأفندى ، أنت ظلمتنى سامحك الله ··

ـ ولماذا ظلمتك يا سيد « فتوح » ؟

ـ أولا أنا لا أريد أن آخذ المبلغ ، ولم أطلب التصرف فيه ، أريد فقط انقاذه ، أريدك أن تنفقه بيدك على أولاد أخى .

ـ كيف ؟ هل تريدنى أن أبقى هنا وأنفق عليهم ؟

ـ يمكن أن تشترى به ماهم فى حاجه اليه .

(هل هى حيلة جديدة لمعرفة المبلغ ؟ لم يكن قد ذكر له شيئا عن قيمته ، هل يمكن أن يكون لدى الرجل ، الذى وضحت أسباب سخطه دوافع أخرى غير السخيمة والآن لا سبيل لتنفيذ اقتراحه دون أن يصبح موضوع الزيارة الذى يحيطه بالكتمان عرضة لأن يعرفه الجميع ، وخاصة أسرته) .

قال أمين : حتى الآن لا أفهمك ياسيد فتوح ، وما تفعله أم الأولاد طبيعى فى مثل ظروفها ولا يستحق منك كل هذا السخط ، ولا يمنع أن ندفع لها المبلغ لتتصرف فيه بالطريقة المناسبة لظروفها .

واندفع فتوح اندفاعا آخر أشد :

ـ وماذا تعرف يا سيدنا الأفندى عما تفعله ؟ لم أكن أحب أن أتكلم فى مثل هذه الأمور ، ولكن ماذا أفعل وأنا أجد رزقا ساقه الله لأولاد أخى فى طريقه لأن ينفق على لص .

(لا تزال جعبة فتوح ملأى بالمفاجآت ، التى لا يجب أن يتلقاها بمجرد الفضول أو أن يسمح لها بأن تغرقه فى الدهشة . ومهمته تصبح أكثر تعقيدا بعد أن فاحت رائحة النقود . وهو يوشك أن يصبح قاضيا مع أنه

يحمل في جيبه دوافع الكذب والجريمة وليس أمامه سوى أن يكون عادلا ، أو مغفلا لا نظير له ، والوجوه الصغيرة تجتذبها حدة النقاش ، فتعاود التسلل والنظر والدهشة والتفرج عليه كزائر وقاض ومتهم ولا مكان بينهم لوجوه الأطفال الذين جاء من أجلهم والذين لا يعرف متى ولا كيف يلتقى بهم) .

ـ أى لص تعنى ؟

قالها أمين وهو يحدق فى الجبهة العريضة التى تخفى كل الأسرار .

ـ أنت تعرف المنهراوى .. كل الناس يعرفونه .. انه لص لا يعرف أحد له عملا .. انه يضحك عليها ويشجعها لتطلب الطلاق ويمنيها بالزواج ، أصبح بيتها مأواه وتنفق عليه من عرق الصغار ، وتريدنى أن أقف لأن أتفرج عليك وأنت ترمى بنقودك لأولاد الحرام .

(المسافة بين أولاد الحرام وأولاد الحلال تختفى ، وتختفى أيضا بين الحقيقة والزيف ، ولا تتسع الا بينه وبين الأولاد وكيف يمكن أن يتحقق من شىء كهذا الا بسؤال الناس حيث للحقيقة الواحدة ألف وجه وألف لسان ؟ ولهجة فتوح التى كانت ترجو توشك أن تهدد ولكنها فجأة وفى سهولة غريبة تعود للرجاء) .

ياسيدنا الأفندى .. أنت تعرفنى من قديم .. تعرف ما فعلته من أجل الأولاد فكيف لا تثق بى وتثق بامرأة ، ولا أطلب منك

شيئا .. احتفظ بنقودك فى جيبك ، واسأل الناس فلا يوجد من يجهل حقيقتها ، اسأل أى شخص قبل أن تدفع مليما للفاجرة وافعل بعد ذلك ما يمليه عليك ضميرك .

وينتهى الجزء الأول من الزيارة .

★☆★

فى نفس الليلة وفى ضوء مصباح غازى آخر ظهر وجه عزيزة أم الأولاد متعبا وشاحبا وسعيدا فى نفس الوقت ، كانت الزيارة المفاجئة قد أثارت دهشتها ولم تلبث أن أثارت خيالها وظهر وجهها حين اكتسى بمسحة الحلم وكأنما استرد شيئا من جماله الغابر فى لمعة العينين واختلاجة الملامح وكانت الحجرة الوحيدة التى عبر اليها صالة صغيرة والتى تدعوها بيتها ، تبرز فى ضوء المصباح أكثر اتساعا لأنها أكثر فراغا رغم أنها تضم كل ما تملك .

وجلسا هذه المرة على الأرض فوق حصير يغطى معظم الحجرة ، ولم يكن ثمة وجود لغيرها حتى أمينة الصغرى لم تكن هناك .

ـ زارنا النبى يابيه .

كانت عزيزة ترددها كل لحظة ، وكأنها كل ما تعرف من كلمات ولم يبادر هذه المرة لانقاذ مضيفته من أية ورطة تركها تكرر تحيته ، وتعدل فى جلستها ، وتوشك أن تمزق أطراف طرحتها السوداء من كثرة ما تعدل فى وضعها حول وجهها ورقبتها ، وراح يتأمل فى هدوء محتويات الحجرة الواسعة ، ولاحظ أن ثوبها وجلد وجهها يشبهان الحجرة من بعض الوجوه فكلاهما أكبر مما تحتويه ، واكتشف أنها راحت تتأمله هى الأخرى بعد أن كفت عن ترديد تحيته ، سألها عن الأولاد ، لم يبد أنها ضاقت بسؤاله بل بدا لها كمنقذ ، وعاد لعينيها بريق الحلم ، وهى تروى له قصة

لم تكن جديدة عليه ، تصبح امرأة فقط حين تحلم ويذكره صوتها بأنه يجلس وحده مع امرأة وملامحها الدقيقة لا تزال قادرة على أن تحتفظ بعينيه فوقها وهى تروى القصة :

ـ أعمل لك شاى يا بيه ؟

هكذا قطعت حديثها فجأة ..

ـ شكرا لا تتعبى نفسك .

ـ تعبك راحة يا بيه ..

واستطردت تكمل القصة (كانت عبلة تقوم فى بيت عمها بكل العمل كانت تخدم زوجته وأولاده وكان عطا يقوم بكل شىء فى الوابور بلا مقابل ، أما الآن فيعملان بفلوس .. الغلابة أمثالنا فى حاجة الى أجر عرقهم ، وكل واحد أولى بحقه .

ـ ومتى يحضر عطا ؟

ـ ينام فى الوابور ويجىء كل جمعة .

ـ وعبلة ؟

ـ تبيت عند الرشيدى أفندى .

ـ وأمينة ؟

ـ تنام مع جدتها ، جدتها فى حاجة الى من يساعدها ، عجوز وحيدة .

(وتبقين أنت هنا وحدك فى انتظاره . ولو كانت العجوز تهمك حقا لاتسع بيتها لك كما اتسع لابنتك ، وقد يدخل المنهراوى فجأة فيريحه من أن يتعب نفسه فى اكتشاف الحقيقة ، وأفزعته الفكرة قليلا ، ولكن هدوء

المرأة الجالسة أمامه أخجله ، لم يكن في نبرتها أثر للقلق أو الشعور بالذنب ، وكان واضحا أنها واثقة من أنه لن يجيء الى هنا لمجرد السؤال أو الجواب) .

ـ ولماذا تعيشين وحدك ، ابنتك مع جدتها وحيدتان ، ألم يكن أفضل أن تعيشوا كلكم فى البيت القديم ؟

وتضطرب لمعة الحلم فى عينى عزيزة ، فتقول دون أن تفقد صوتها نبرة البراءة :

ـ أولادى كبروا يا بيه ، ولازم يكون لهم بيت (ثم أضافت) بعت نصيبى فى البيت القديم واشتريت هذا البيت .

قال متعمدا أن يمس الجرح متظاهرا بالبراءة محدقا فى الملامح الدقيقة :

ـ أخشى وأنت وحيدة أن يفكر بعض اللصوص فى ايذائك .

قالت وقد تحول الحلم فى عينيها الى كابوس :

ـ ماذا يأخذ منى اللصوص يا بيه أنا امرأة غلبانة .

ـ أولاد الحرام لا يشفقون على أحد .

وارتعش صوتها :

ـ ماذا تقصد يا بيه ؟ أنا لم يشفق على أحد من أولاد الحلال ولا أولاد الحرام ؟

ـ لست أقصد شيئا سوى مصلحتك .

وبدأ صبر عزيزة وكأنه قد نفد فجأة ، فاندفعت تهدر بصوت مجروح وبدا جلدهايضيق بما يحتويه .

ـ حتى اليوم لم أجد أحدا يقصد مصلحتى أبدا ، ولما جئت حضرتك ظننت أنك لن تكون مثل بقية الناس ، ولكنك ترمى بالكلام هنا وهناك ولست أعرف قصدك ، ربنا يريح قلبك خلصنى وقل ماذا تريد ؟

ـ هل حرام أن أخاف عليك ؟

قالها بهدوء مدركا أنه يقترب من غرضه ، وانفجرت عزيزة :

ـ لا مؤاخذة يا بيه اذا تجاوزت حدودى ، ماذا جعلك تخاف على اليوم ، منذ مرض زوجى وكان صاحبك لم تعرف ماذا جرى لى ولأولادى ، أكثر من خمسة أعوام والصغير والكبير يشترى فينا ويبيع ، وحضرتك فى مصر ، وتأتى وتسافر لم نفكر مرة واحدة فى زيارتنا وتجىء الليلة وتقول لى انك خائف على لأنى أعيش وحيدة ·· ربنا عرفوه بالعقل يا بيه ؟

ـ أنا مستعد أساعدك اذا تأكدت أنك مستعدة لمساعدة الأولاد ·

ـ يا بيه كتر خيرك ·· أنا مستغنية عن مساعدتك وأولادى قبلى ، تكلم كلاما يرضى ربنا ، لم يصنع أحد غيرى شيئا للأولاد يا بيه لو كان عندك أولاد ما قلت هذا الكلام ··· أنا فاهمة قصدك انت سمعت كلام الناس ، كلام أولاد الحلال ·· وأنا لا يهمنى أحد ولست محتاجة الى مساعدة منك أو من غيرك · !

وأخفت وجهها فى طرحتها السوداء ، وسرت رعشة فى جسدها كله فبانت مثل كتلة سوداء تنتفض ·

(الموقف يوشك أن يفلت منه ، وانفعالها يهزه ، ويهز فى نفس الوقت الخيوط الدقيقة التى كان ينسجها على مهل والحقيقة المعلقة

بهذه الخيوط تظهر وتختفى قبـــل أن تنقطـع ولا سبيل الى الوصول مع هذه المرأة التى بدأت تفتنه قوتها الغامضة ، قوة اليـأس واللامبالاة ، وقد يكون ما تخفيه أكبر مما يبحث عنه ، وبدت له فى لحظة جـديرة بالثقة لو استطاع هو ان يكسب ثقتها) .

ـ لماذا تغضبين ؟ سمعت كلام النـاس ولم أسـمع كلامك ، أنا مسـتعد لتصديقك ... قولى الحقيقة .. لماذا لا تثقين بى ؟

ـ ماذا سمعت ؟

قالتها بهدوء غريب دون أن تنظر اليه ..

(وينقلب الموقف فجأة ، ودائما يفقد المبـادرة ، وفى هذه المـرة يصبح الغضب سلاحـا ضـده وقـوة اليأس تسـلب النقود التى يحملها كل ما فيها من قوة ، ولم يعـد أمامه ـ هو الذى كان يظنها ستنهار معترفـة ـ سـوى أن يتحول الى محقق صغير فى قضية تافهة وماذا يفعل اذا أنكرت كل شىء ؟ ستظل محتفظة بسرها داخـل تلك الثياب السوداء ، أما هو فليس أمامه سوى أن يختار أن يكون أبله ، أو مجرد رجل جاء ليثبت لها أنهـا لا تستحق مساعدتـه التى لم يقـدمها ابـدا) .

ـ لا يهمنى سوى مساعدة الأولاد واذا كان ما سمعته صحيحا فقد تكونين فى ظروف لا تسمح لك بمساعدتهم (ثم أضاف فى شبه رجاء) ليتك تثقين بى .

ـ ماذا سمعت ؟

أعادت سؤالها بنفس التصميم البارد واللامبالاة ٠

وانفجر هو هذه المرة وقد ضاق بهذه اللعبة التى بدأها :

ـ سمعت أن المنهراوى يريد أن يتزوجك وأنه ٠٠٠

وقاطعته وهى تحدق فيه بعينين جامدتين رغم ما فيهما من بقايا الدموع ٠

ـ اذا كان هذا ما سمعته ، فهو صحيح ٠

وساد صمت ثقيل لم يجرؤ كلاهما على خدشه ٠٠

(من هذه المرأة ؟ وما الذى تريده ؟ وعن أى شئ تسفر هذه اللعبة ؟ والى متى يظل مترديا فى هوة الصمت التى تبدو وكأنها تقف وحدها على حافتها وبمقدورها أن تمضى فى أى وقت تشاء دون أن تعبأ به ، كانت تبدو هناك قوية صامتة لا مبالية ولم تعد أسرارها فقط هى التى تشوقه ، واختفى الأولاد الذين لم يظهروا قط ، وأصبح هذا الكيان الضعيف القوى الملفوف بالسواد هو كل ما يهمه ، هل يمكن أن يتم بينهما تفاهم حقيقى ولم يعد أمامه سوى أن يتوسل) ٠

ـ لماذا لا تثقين بى ، كيف تصدقين أن المنهراوى يريد أن يتزوجك حقا انه لص ؟

(واهتزت الكتلة السوداء ، اهتزت بعنف هذه المرة وكأنه أطلق عليها الرصاص وفوجئ هو نفسه بتأثير كلماته التى قالها فى لحظة يأسه

لضعفه فاذا بها تجرح كبرياءها وتفجر ضعفها ويأسها كذلك .. وارتجفت على شفتيها الكلمات) .

ـ لا أصدقه ولا أصدقك ولا أعرف ماذا أصدق ، ماذا تريدون منى ؟ لمادا لا تتركونى فى حالى ؟

وصمتت فجأة ، ثم اندفعت بنفس الحدة وفى عينيها بريق غريب وجذاب :

ـ لم أذهب لأحد فى بيته .. أول مرة رأيت فيها المنهراوى كان فى ليلة كهده .. هو الذى جاء مثلك .. ولكنه نزل من السطح ، كنت نائمة ومعى أمينة ولم أصرخ حتى لا تصحو فزعة .. كان الخوف يشلنى ويجعل منه وحشا ، كانوا قد شعروا بحركته فى بيت مجاور واضطر الى الهرب وظل عندى حتى هدأت الضجة وحين اطمأن قال : لن أنسى جميلك . وطلبت منه ألا يعود .. ولكنه كان يأتى أحيانا فى الليل أو فى النهار ويصر على أن يترك لى نقودا وأوقاتا كان يشترى ثيابا للأولاد ، كنت أصر على الرفض وأرجو أن يدعنى فى حالى ، كان يقول : أولادك محرومين من الأب وأنا محروم من الأولاد .

ـ وتصدقين مثل هذا الكلام .

ـ لم أعرف أبدا ما فى قلوب الناس .. وما يعملونه يحيرنى .. كنت أسمع بأذنى كلامهم الجارح عن تردده على بيتى ، وفى نفس الوقت كنت أجد الناس الميسورين فى البلد قد بدأوا يرسلون الينا حبوبا ونقودا ويقولون : نصيبكم فى الزكاة ، ولم أكن أفهم لماذا أصبح أولادى يستحقون الزكاة ، ولماذا أصبحوا يدفعونها ، وكان المنهراوى يقول لى لا تصدقيهم .. انهم يدفعون لى الاتاوة عن طريقك بعد أن علموا أننى أريد أن أتزوجك ، ولم أكن أعرف

ماذا أصدق ، تأتى أيام يخيل لى فيها أنه طيب القلب ، المنهراوى الذى يخيف البلد كلها ، يقول لى يابنت الناس والله العظيم أنا غلبان مثلك ، وليس لك غيرى ، ويرجونى أن أصدقه ، وتأتى أيام يخيل الى أنه لا يتردد فى قتلى اذا عصيت أمره ، ولا أحد يريد أن يتركنى فى حالى ، ولا أعرف ماذا أفعل ٠

(ومرة أخرى يسود الصمت الثقيل ولكنه مفعم هذه المرة برؤى أكثر عمقا وبارتجافات الكتلة السوداء وبالحقيقة تزداد تعقيدا كلما ازدادت وضوحا ، وبالمسافة بينه وبين الأولاد توغل فى البعد كلما أوغل فى المسير ، ومهمته تتجاوز مهمة المحسن والقاضى ، والنقود التى كانت تثقل جيبه أصبحت تثقل ضميره) ٠

وفى حركة لاارادية يخرج النقود من جيبه ليضعها أمامه٠٠وأمام الكتلة السوداء كانت الكلمات تفقد قدرتها وقيمتها فى موقف تعوزه الثقة ، ويكتنفه الغموض ومنذ جاء لم يفعل شيئا سوى ترديد الكلمات ، والصمت لا يزال ، والكتلة السوداء لا تتحرك ورأسه يوازن بين ما يناسب الموقف وما لا يناسبه من كلمات ، والوقت يمضى دون أن يتغير شىء وكأن كل واحد يخاف من المستقبل بقدر ما يخاف عليه ، ويتلاشى الصمت فجأة وتلتقى العيون عند باب الحجرة الذى يفتح فى هدوء ليدخل رجل طويل نحيل يلبس معطفا أسود فوق جلباب ، لا يتضح لونه ويلتف رأسه بكوفية رمادية ، وتند عن الكتلة السوداء شبه صيحة :

ـ المنهراوى ؟

وفى ضوء المصباح يبدو وجه المنهراوى بملامحه البارزة بعينين جامدتين صغيرتين تبرقان وسط جلد راكد خامد ٠

ـ سلام عليكم ·· لا مؤاخذة ·· لم أكن أعرف أن هنا ضيوفا ·

ومد المنهراوى يدا نحيلة جافة تلقاها أمين فى يده ، والتقت نظراتهما معا فوق النقود التى لا تزال فى مكانها فوق الحصيرة ·

ـ وعليكم السلام ··

قالها أمين وهو يفكر أن من العبث أن يعيد النقود الى جيبه ·

ومن جديد خيم الصمت ، وتحركت عزيزة حركات كثيرة لا معنى لها وتنقلت نظراتها بين الرجلين دون أن تجرؤ على فتح فمها بكلمة واحدة ·

ـ مرحبا بك يا أمين أفندى ·· يظهر أننى جئت فى وقت غير مناسب ·· واذا كنتم تحبون أن أخرج ···

ـ لا ·· أنا الذى سأخرج ·· لقد أمضيت وقتا طويلا هنا · قالها أمين وعيناه تسبران وجه المنهراوى وحركته ·

ـ خذ نقودك يا أمين بيه ·

قالتها عزيزة وهى تنقل نظراتها بين الرجلين ، وفوجىء أمين وكان يعتقد أن نقوده قد أفلتت الى الأبد منها ومنه ، ولمن هذا الاختبار الجديد ؟ له أم للمنهراوى ؟ وتردد لحظات عبرت رأسه خلالها صورة الأولاد والأم العجوز وصديقه الذى لا يكف عن التجول وتكلم المنهراوى هذه المرة :

ـ لماذا ترفضين هدايا الناس الكرماء ؟

وحدجته عزيزة بنظرة محنقة :

ـ لا شأن لك بهذا ·

وتسربت شجاعتها الى أمين فقال محاولا انقاذ ما يمكن انقاذه :

ـ هذه النقود للأولاد ·· ويهمنى أن تصل اليهم ·

وقال المنهراوى بلهجة ساخرة :

ـ هذا ما قاله لك والدك الحاج أليس كذلك ؟

ـ وما شأنك بوالدى لا تذكره على لسانك ·

ـ لاداعى للغلط يا أمين أفندى ·· أنا أعرف والدك أكثر منك ·

وارتجفت ملامح عزيزة الدقيقة والتمع فى عينيها بريق خوف أنثوى ، وتجهت الى أمين :

ـ أرجوك أن تخرج الآن يا بيه وتأخذ نقودك ·

ثم التفتت الى المنهراوى ضارعة :

ـ هذا غير الناس الذين تعرفهم ·· دعه وشأنه ·

وفكر أمين الذى لم يجرؤ على أن يمد يده الى النقود وجد أمامه آخر فرصة ليكشف حقيقة المنهراوى لها أو لنفسه ، فقال له :

ـ اذا كنت تريد هذه النقود فخذها وابتعد عن عزيزة ·

ولم يفاجأ حين مد المنهراوى يده ودس النقود فى جيبه ، فوجىء فقط بوجه عزيزة يمتقع ، وبها وهى تنشب أصابعها فى يد المنهراوى فى محاولة يائسة لمنعه من أخذ النقود وهى تصرخ :

ماذا تفعل ؟ دع النقود ·

ولكن المنهراوى دفعها بيده فى قسوة ، وقال أمين :

ـ النقود لا تهم ·· المهم أنك عرفتيه على حقيقته ·

وعادت عزيزة مجرد كتلة سوداء تنتفض ، وقال المنهراوى

فى لهجة باردة وهو يسد الطريق بقامته الطويلة النحيلة وعلى شفتيه السوداوين ابتسامة هادئة .

ـ أنا فاهم ان أمين أفندى رجل طيب ·· انه يؤدى مهمة كلفه بها أبوه ·· ولا يعرف أكثر من ذلك ·

ـ أما كفاك أنك أخذت النقود ؟ ماذا تريد من أبى ؟

ـ لست أريد شيئا ، بلغه شكرى لم أتصور أنه سيبعث الأمانة بهذه السرعة ، أما اذا كنت تعرف الموضوع فلا داعى للتمثيل أمام هذه المرأة ·

وفقد أمين أعصابه واستردها فى لحظة ، لم يكن يهمه أن يدافع عن موقفه أمام المنهراوى ، كانت عزيزة هى التى تهمه ، ولم يكن ما يخافه أن براءته سوف تكون على حساب أبيه الذى لايستبعد لحظة أنه يدفع الاتاوات للمنهراوى بل كان يخاف أن يورط أباه فى مأزق يدرك أنه هو لن يخرج منه ، كانت كتلة سوداء تتحرك فى يأس وتنتقل بين الرجلين نظرات مثقلة بالشك وكانت تردد :

ـ لا أصدق ـ لا أفهم ··

وعاجلها المنهراوى بنفس اللهجة الباردة :

ـ ستظلين طول عمرك بلهاء ·· لماذا لم يسألوا عنك الا بعد هذه السنين ؟

وامتلأت الحجرة بظلال الأشياء القليلة المتناثرة ، وكان ضوء المصباح يشحب دون يحس أحد وبدأت العيون تفقد القدرة على الرؤية كما بدأت الأشياء والوجوه تفقد شكلها الحقيقى ولم تمتد يد واحدة لترفع شعلة المصباح ·· وكانت شعلة المصباح تحترق ·· بعد قليل سيصبح كل شىء بلون الدخان وفى بقايا الضوء

الخافت المحترق تسلل أمين جهة الباب دون أن يعترض طريقه أحد أو كلمة ، وفى رأسه المضطرب صورة أبيه الحاج شعبان تطل دون ملامح ، وتتكلم بلا صوت ولم يكن فى رأسه ولا فى الحجرة مكان للأولاد ·

وينتهي الجزء الثانى من الزيارة ·

***

فى نفس الليلة وفى ضوء مصباح قوى مدلى من سطح الحجرة الواسعة ومحلى بتهاويل نحاسية وفى بيت أمين وقف أمام أبيه الغارق فى عباءة صوفية ثمينة يشبك أصابعه ، ويفرقعها فى عصبية ويتكلم بصوت حاد :

ـ كنت أقول لنفسى غدا يكبر ، غدا يفهم الناس والدنيا ، ولكنك تأبى الا أن تجعل من نفسك أضحوكة من يستحق ومن لا يستحق ·

ـ أنت الذى جعلتنى أضحوكة ·

ـ لا جدوى من الكلام معك ، تريد أن تساعد أولاد صديقك ؟ ·· ابتعد عنهم هذه أعظم مساعدة وأنت تلميذ قلت لك ابتعد عن (حسين) ليس مثلك ولست مثله ، أنت الذى تسببت فى كل ما جرى له ، وجعلته يتوهم أن كل شىء سهل وممكن ، شجعته على أن يهمل عمله الذى يعيش منه ويذاكر ، ويصبح أفنديا مثلك ، وأنت تعرف الآن ماذا أصبح ؟ ·· والآن بعد أن ظننت أنك كبرت وفهمت الدنيا تأتى وترمى بنقودك الى لص ·

ـ وأنت ألا ترمى له بالنقود ؟

ـ يا أبله المنهراوى مثل كلب يخاف ، ويرضى بالقليل

ولا يكف عن الطلب فكيف تصدق أننى كنت سأعطيه مثل هذا المبلغ ؟ ماذا يعلمونك ؟

وصمت أمين هذه المرة ، بدت له مناقشة أبيه أمرا عقيما ، وكذلك فكرة البحث عن الأولاد ، أو زيارة الأم العجوز التى تعيش مع أمينة وامتد العقم الى كل فكرة خطرت فى باله فى تلك الليلة التى لم يذق طعم النوم فيها ، فكرة واحدة بدت له معقولة ورائعة فكرة البحث عن صديقه الذى لا يكف عن التجوال ·

وفى الليلة التالية وفى نفس الوقت الذى هبط فيه الى القرية ،كان يغادرها ولم يكن يسرع الخطى هذه المرة ، كان يمشى فى بطء مؤملا أن يلتقى بشبح صديقه ، لم يعد يخافه بدا له شبحا طيبا وحكيما فى نفس الوقت ، ولن تصل به الخسة الى أن يتخلى عنه ، وحين أحس بذراعه تتسلل تحت ذراعه لم يقف شعر رأسه ، مضى معه الى الطريق الزراعى ولم يكن ثمة رعب يجثم بين الحقول ، وسارا معا ، كانت الحقول خضراء جميلة ، والصمت عميق ونظيف·

ـ كنت واثقا من أنك ستجىء ·

قالاها معا ، ولم يسأل أحدهما ماذا تعنى ؟

كانا متفاهمين ، وكان كل شىء واضحا ، رغم أن الظلام وقتها كان يغمر الكون كله ·

وتنتهى الزيارة ·

الصواب والخطأ

فلما كانت الليلة الثانية بعد الألف ، لمحت « شهرزاد » فى وجه الملك « شهريار » انطباعة الضجر القديم تولد فى ظلال أهدابه المتثاقلة ، وفى التجاعيد التى تتداعى مع الملل واليأس ، والتى بدت فى تلك الليلة وكأنها خطوط تشير الى اقتراب النهاية التى ظلت شهرزاد تطاردها ألف ليلة وليلة ، وآنذاك وقف يأسها وجها لوجه أمام يأس الملك فى مناجزة سافرة ، وكأن العالم لا يحتمل غير نوع واحد من اليأس !

وجاء صوتها المخملى الوثير يغازل حواس الملك ، ويستقطب حوله الخطوط التى كانت تلف الوجه فيما يشبه الضمادة ، وكأن هذا الصوت لا يخرج من روح حزينة موجعة .

وقالت وهى ترخى ساقيها الجميلتين مع تموجات صوتها وتموجات عطرها الذى كانت تطلق اساره حركات يديها وحركات ثوبها .

★★★

« يحكى يا مولاى أنه كان يعيش فى بلاد الهند ومنذ زمن بعيد ملك ذائع الصيت اسمه ـ رادا ـ وكان يحكم ولاية كردستان وكانت الطريقة التى يختار بها الملك وزراءه ومعاونيه هى السبب فى ذيوع صيته ، فى تلك الأزمنة الغابرة ، ذلك أنه كان يعقد كل خمسة أعوام امتحانا عسيرا يبيح لمن يشاء من رعيته الدخول فيه ، ولم يكن هذا الامتحان سوى مسألة حساب يحتاج حلها الى درجة عالية من الذكاء والمهارة ، وغالبا لم يكن ينجح فى حلها سوى عدد قليل جدا من أفراد الشعب الذى كان يقبل على هذا الامتحان فى شبه مهرجان ، ولم يحدث أن زاد عدد الناجحين عن العدد الذى يحتاجه الملك لمعاونته فى شئون الحكم ، ولما كان الملك لا يحتاج فقط الى أناس ذوى ذكاء رفيع بل ضمائر أيضا ، فقد كان بضمن امتحانه ذاك وسيلة فعالة لاختبار الضمير . ذلك أنه كان يضع نتيجة الحل الصحيح للمسألة فى آخر صفحة فى كراس الاجابة ليكون بمقدور كل ممتحن أن يقارن بين نتيجة حله والنتيجة الصحيحة فور انتهائه من الحل ، فاذا تحقق من نجاحه ، هنأ نفسه بالمنصب الجديد ، وأعطى نفسه درجة النجاح ، والذين يكتشفون خطأهم عليهم أن يعاودوا المحاولة فى الوقت المحدد ، حتى اذا لم يوفقوا ، خرجوا وهم أكثر الناس اقتناعا بعدم صلاحيتهم بل بصلاحية من نجحوا فيما فشلوا هم فيه !

وبهذه الطريقة ساد السلام والرخاء ولاية ـ كردستان ـ سنين طويلة ولولا تلك المناوشات والغارات التى تقوم بها ولاية ـ كسبتان ـ المجاورة لما حدث ما يعكر صفو الحياة السعيدة المستقرة التى اشتهرت بها ـ كردستان ـ !

ولم يحدث خلال هذه الحقبة من التاريخ أن أثبتت طريقة الملك ـ رادا ـ فى اختيار معاونيه فشلها فى تسليم أمور البلاد

لأنجب أبنائها وأكثرهم كفاءة واخلاصا . وتروى أساطير – كردستان – أنه حدث فى مرات قليلة أن حاول بعض ضعاف النفوس وناقصى الكفاءة أن – يستغلوا الثقة التى أعطاها الملك للممتحنين حتى يحكموا على أنفسهم بأنفسهم ، والتى كانت تدفعه – فيما تروى الأساطير نفسها – الى عدم مراجعة أوراق الامتحان بنفسه ، دفعت هذه الثقة بعضهم الى ادعاء أنهم توصلوا الى الحل الصحيح ، فكانت النتيجة أن هؤلاء المدعين كانوا يرتجفون هلعا فى أول مرة ينفردون فيها بالملك – رادا – حيث كان من تقاليده ، أن ينفرد بالناجحين واحدا واحدا عقب الحفل العظيم الذى يقيمه لهم فى قصره المنيف فوق ربوة الشمس المشرقة ، ليتداول معهم فى شئون الحكم . كانت عينا الملك النفاذتان من خلف القناع الملكى الذى يغطى وجهه دائما ، وفكره العظيم الذى لا يغطيه أى قناع ، كانا يكتشفان الخداع الذى تورطوا فيه ودون أن يرجع الى أوراق امتحانهم وآنذاك ، كان لا يوقع بهم أى عقاب بل يتركهم لضمائرهم التى تقوم بالمهمة خير قيام ويقضى هؤلاء بقية حياتهم حيارى هائمين فى أنحاء البلاد يتكففون الناس الرحمة والخبز ، ويقدمون لهم الدليل الحى على أن الكذب والخداع لا يجديان أبدا .

★★★

ولمحت شهرزاد وهى تقارب بين ذراعيها وتنيمهما فوق ساقيها الممدودتين فى استرخاء وحرية لا يتوافران لها الا وهى تحكى قصصها للملك ، لمحت بريق الاهتمام يضىء وجه الملك ويجعل من عينيه أحلى شمعتين فى البهو المزدان بالشموع .

ووشت نبرات صوتها باحساس المنتصر وهى تواصل حكايتها قائلة : وعاشت ولاية كردستان بين ولايات الهند كأسطورة للسلام والازدهار حتى ظهر فى احدى مدنها فتى نجيب بارع اسمه – ساراج – ولم يبق لدى الناس شك فى أن – ساراج – الذى كان

أحد أعمامه وزيرا للملك واستشهد فى احدى المعارك ضد ـ كسبتان ـ سوف يجتاز بنجاح الامتحان الصعب الذى يعقده الملك حين يحل موعده ، ويأخذ مكان عمه !

وفى الموعد المحدد ، دخل ساراج ضمن حشود الشعب الامتحان الذى يبرز الصفوة المختارة من أهل البلاد ، وراح يعمل ذكاءه النفاذ فى حل المسألة التى لم تكن صعبة بالنسبة لمواهبه ولكنه فوجىء بأن النتيجة التى وصل اليها ، لم تكن مطابقة للحل الصحيح فى آخر الكراس ، ولم يرتبك ـ ساراج ـ فقد كان عظيم الثقة بمواهبه ، وبأنه لابد وأن يصل الى النتيجة الصحيحة مادام يتبع المبادىء الصحيحة وراح يراجع الحل فى هدوء متوقعا أن يكون ثمة خطأ فى نقل بعض الأرقام أو الرموز ولكن تلك المراجعة لم تؤكد له سوى شيئين ، أولا أنه لم يخطىء فى نقل الأرقام والرموز ولم يخطىء فى اتباع الطرق الصحيحة وثانيا أنه رغم هذا كله لم يصل الى الحل الصحيح الذى يسجله الملك رادا بنفسه فى ذيل الكراس .

ولم يفقد ساراج العظيم ثقته فى نفسه ، رغم الغيظ الذى استولى عليه ، والذى كان يتزايد مع مرور الوقت وكان السؤال الذى يقلقه هل سيصل أحد غيره الى الحل الصحيح ، أيكون هناك من هو أكثر منه كفاءة ومقدرة ، هو الذى أكدت كل التجارب والمواقف التى خاضها عبقريته النادرة ؟ أم يصبح هذا الامتحان فرصة لتعلن ـ كردستان ـ افلاسها من الرجال العظام ؟

ولم يكن هذا الا بعض همه ، أما همه الأكبر ، فقد كانت رغبته المجنونة فى أن يعرف مصدر الخطأ فى الحلول التى جربها ! وفى اللحظات الأخيرة كان تفكيره ينحصر فى السؤال :

هل يمكن أن يدله على خطئه أحد الذين يصلون الى الحل الصواب ؟

ولكن أحدا من هؤلاء لن يكلف نفسه مشقة الاهتمام بأمره بل سينظر اليه كواحد من الملايين الذين لا يستحقون سوى تفضله بسياسة أمورهم ، ودفعه هذا الموقف ـ لا الرغبة فى الخداع ـ الى أن يدعى أنه وصل الى الحل الصواب ، ويعطى نفسه الدرجة النهائية اذا كان هذا هو السبيل الوحيد لمقابلة الملك ، لمقابلة أقدر الناس على معرفة الصواب والخطأ ، ليقول له :

ـ يا مولاى أين الخطأ فيما وضعت من حلول ؟ وكيف لم أصل للنتيجة التى وضعتها أنت ؟

وكانت أولى المفاجآت التى واجهته بعد الامتحان ، أن علم أن هناك عشرين شابا ممن أدوا الامتحان قد وصلوا الى الحل الصواب ولكنه فوجىء بأنهم جميعا ذوو وجوه لا تفصح عن شىء ، الخوف الحقيقى ، الذى كان يتعاظم بمرور الوقت واقتراب موعد الحفل المهيب الذى يلتقى فيه الملك بمن نجحوا فى الامتحان ، وحاول فى المرات القليله التى التقى فيها بزملائه الناجحين ، أن يسبر أغوارهم ، أن يعرف الطريقة التى وصلوا بها الى الحل **والصواب ولكنه فوجىء بأنهم جميعا ذوو وجوه لا تفصح عن شىء ،** وبأن قاموسهم اللغوى لا يعرف سقطات اللسان ولا يقول شيئا لا يحبون قوله !

وجاء موعد الحفل ، وغاص قلبه فى نفس اللحظة التى كانت قدماه تغوصان فى السجاد الفاخر الذى يغطى طرقات القصر ، وأروقته ، واسترد شجاعته بعد أول نخب شربه ، وحين أطل الملك عليهم من فوق عرشه ، اعتقد أن لا أحد سواه يعنيه الملك بتلك الابتسامة الخفيفة التى ارتسمت على شفتيه وحدهما حيث كانت ملامح وجهه تختفى خلف القناع الملكى الذى لا يرفعه ـ رادا الا حين يجلس مع أصفيائه ـ كما يزعمون ـ وحين ألقى خطبته ،

جاءت كلها عن الضمير الذى يعتقد ـ رادا ـ أنه موهبة كالجمال والذكاء ٠

وأنه لاغنى عنه لأى انسان كى يصبح جديرا بانسانيته أما بالنسبة للحاكم فهو كل شىء ٠

هل يعنى أحدا سواه بهذا الكلام ولكنه لم يكذب من أجل الوصول الى المنصب ، بل من أجل المعرفة وهو يستحقها مادام يتطلع اليها ، ويجد فى نفسه القدرة على تمثلها وهى بدورها تستحق شرف المغامرة ، فلماذا يخاف ، ومادام محتفظا بعقله فى رأسه فسيعرف كيف يناقش الملك حين تأتى لحظة اللقاء ، وشرب كأسا ثانية وثالثة ، وانقشعت المخاوف والأوهام وكانت ثريات القصر تضىء داخل رأسه ، وأحس كأنه مقبل على مغامرة غرامية لا على تجربة قد تكلفه حياته وحين يأتى دوره للانفراد بالملك يجب أن يبدأ بالاعتراف له بكل شىء ولا يتركه يقوم بدور المكتشف !

وحلت اللحظة الحاسمة ، وأمام باب الحجرة الخاصة التى ينفرد فيها الملك بمعاونيه واحدا واحدا ، تراجع الحارسان اللذان رافقاه اليها وفوجىء بالملك ـ رادا ـ يقابله فى منتصف الحجرة الرحيبة عطوفا رقيقا مبتسما وكأنه بلا قناع قائلا فى نفس اللحظة :

ـ أهلا ساراج ، سمعت عنك قبل أن أراك !

ودق قلبه بعنف ، وانحنى أمام الملك فى خشوع ، وقبل أن يرفع رأسه أو يفتح فمه ، قال له ـ رادا ـ وهو يمد اليه يده ، ويقتاده الى جواره حيث جلس ٠

ـ كان عمك من خير رجالى وآمل أن تكون مثله ٠

ولم يعد لديه شك فيما يشاع من أن الملك لا يراجع أوراق

الامتحان مكتفيا بقراءة الدرجة التى يضعها الممتحن بنفسه هل يصمت أم يعترف ؟ وأسرعت دقات قلبه وهو يقول :

ـ آمل يا مولاى أن أكون عند حسن ظنك !

وفاجأه رد الملك :

ـ كيف يا ـ ساراج ـ وقد بدأت هذه البداية ؟

وتلعثم ساراج قائلا :

ـ أود يا مولاى ٠٠ أن أشرح لك ٠

ـ لا أريد شرحا ٠

هكذا قاطعه الملك بلهجة تتغير لحظة فلحظة ـ ولم يعد يبصر وجه الملك أو قامته كان الملك قد تحول الى مجرد قبضة تلتف حول معصمه ، وصوته كأنه ينبعث من جميع الأركان ٠ أنا أعرف الكثير عن كفاءتك ، وخدمات عمك للولاية جديرة ، بأن تغفر لك ما تورطت فيه من خطأ ، ولست ممن ينسون جميل من مضوا من معاونى وسأمنحك فرصة جديدة لاثبات كفاءتك حتى اذا بدا لى أن سوء حظ لازمك فى الامتحان فسأنسى كل شىء عن خطئك ولا تظن يابنى أن الرحمة والعفو ليستا من صفاتى ٠

ووقف الملك ـ رادا ـ مؤذنا بانتهاء المقابلة ، وعادت للوجه المقنع ملامحه وابتسامته الرقيقة الشاحبة وفتح الباب ورافقه حتى خارج القصر حارسان ٠

وكانت الفرصة التى اعطاها له الملك ـرادا ـ هى وزارة الدفاع التى كان يدير شئونها عمه ، ورأى ساراج بعد تفكير عميق أن من الحماقة أن يترك هذه الفرصة التى يمكن أن يؤكد بها كفاءته ، ويفسد الأمور باصراره عن البحث وراء الصواب والخطأ

مادام الحاكم العظيم قد أبدى مثل هذا التسامح ، طوق عنقه بهذا الفضـــل ! فلم الاصرار على شيء قد ينتهى به الى غـير ما يحب أو يتوقع • أما هذه الفرصة فلو نجح فيها ووضع حدا لاعتداءات ـ كسبتان ـ على بلاده فسيكون بطـلا ، ولو مات سيكون شهيدا لا مجرد كذاب ومخادع لا يجد الناس فى حياته غير عظة يقدمونها لأولادهم ، وفى لحظة الاختيار تلك عبرت رأسه آلاف الصور لآلاف الوجوه لأهل مدينته وأهله وهى جميعها تصنع اكليلا لوجه حبيبته ـ كامالا ـ فلم يتردد ؟

وارتشفت شهر زاد جرعة من عصير الورد وهى تواصـــل حكايتها قائلة : وراح ـ ساراج ـ يا مولاى بعد أن تقلد منصـــبه يجمع المعلومات عن ولاية ـ كســبتان ـ التى كانت تتحرش بين وقت وآخر ـ بكردستان ـ فعرف أنها ولاية محرومة من الازدهار والاستقرار وتحاول أن تنال بالسلب والنهب ما تعجز عن نيله بالجد والعمل والنظام ، والمعروف أن مثل هؤلاء المغامرين الذين يحركهم اليأس ويجمعهم الخوف يكونون أشد بأسا فى القتال من الفلاحين الطيبين من أهل كردستان ، وبدراسة جغرافية كسبتان ، عرف أنها بلاد جافة محرومة من الأنهار العديدة التى تمر بكردستان ولا عمل لأهل كسبتان سوى صيد الوحوش ونهب القوافل المسافرة والغارات على الحـدود المجاورة لها ، وفكر طويـلا وهو ينظر فى الخرائط التى تصـور حدود الولايتين ويجد أن النهر الأحمر يمر على مقربة من حدود كسبتان وهبطت عليه فكرة جريئة فلو أنه شق فرعا من النهر الأحمر الذى تتدفق مياهه الغزيرة فى البحر وحوله ناحية كسبتان لتساقط من فوق جبالها الصخرية وشق له مجرى فيها ، ولتحول أهلها بدورهم من أعمال السلب والنهب الى فلاحـة الأرض والاســتقرار فيها والحرص على أن يسود الســلام بلادهم وبلاد غيرهم •

ولم يكد يطرح فكرته على مجلس الوزراء برئاسة ـ رادا ـ حتى ووجهت فى بداية الأمر بمعارضة عنيفة ، وكانت هذه المعارضة فرصة العمر ليثبت ساراج براعته فى المناقشة حين يقنع الجميع بفكرته التى بدت لهم ضربا من الجنون خاصة حين أفهمهم أن جيش بلاده من الفلاحين هو الذى سيقوم بهذا التحويل ٠

واحتدمت المناقشة :

ـ كيف نعطى أعداءنا ما نمتلك من موارد ؟

ـ نحن لا نمتلك الا ما نستغله فقط من مياه النهر والباقى يضيع فى البحر ، فلم لا نتركه لهم ؟

ـ انهم أعداؤنا ، وهم لا يستحقون هذا الخير ٠

٠٠ هكذا قال أحد الوزراء ٠

وأكمل آخر :

ـ لو كانوا يستحقونه لأجرى الله فى بلادهم أنهارا ٠٠

ـ الجوع والفقر يحولهم الى أعداء وسفاحين ، ونحن نريد أن نحولهم الى أصدقاء ومزارعين ٠

ولمح فى عينى ـ رادا ـ لمعة تأييد لفكرته ، ولكنه كان كدأبه صامتا لا يقول رأيه الا فى نهاية النقاش فلم يتردد ـ ساراج ـ فى مقاومة معارضيه ، وقال وزير ثالث :

ـ لماذا لا يأتون هم ويشقون هذا الفرع ؟

ـ هم لا يدركون أننا نسمح لهم بذلك ، كما أنهم لا يدركون قيمة الزراعة ، ولن نخسر فى هذا سوى قطرات من العرق بينما نخسر فى الحرب أرواحنا ٠

ـ ماداموا لا يدركون قيمة الزراعة فقد يظنون أننا نريد أن نغرق بلادهم وهكذا لا تنتهى الحرب !

ـ البلاد التى لا تعرف الزراعة لاتفهم معنى الغرق ، والبلاد التى تمسك بالفأس لا تحب أن تمسك بالسلاح !

ـ أنت المسئول يا ساراج !!

ـ نعم أنا المسئول ٠

وتثنت شهرزاد وهى تشم روائح البخور المتصاعد فى أرجاء البهو وترمق شهريار بنظرة دلال آسره وقالت موجهة الخطاب اليه :

ـ وهل كان ـ ساراج ـ يحلم بأكثر من أن يكون مسئولا عن مثل هذا ٠٠ المشروع الكبير ؟ وكما واجه المعارضة على مستوى الوزراء واجهها على مستوى الشعب الذى كان رغم ثقته فى حكامه يلقى بين آن وآخر بسؤال هنا وبسؤال هناك ٠ ونزل الى صفوف العاملين يشرح لهم فكرته ، ويضرب معهم بفأسه ، وكما اقتنع الوزراء اقتنع الشعب ، وفى البداية لم يفهم أهل ـ كسبتان ـ شيئا مما يحدث بجوارهم ، وحين رأوا شلال المياه يتدفق فى أرضهم شاقا لنفسه مجرى باعثا الخضرة هنا وهناك ، ودهشوا وازتووا ، وغسلوا أجسادهم وملابسهم وناموا فى ظلال الأشجار التى نمت وحدها ، ثم صنعوا من أخشابها بيوتا وفئوسا وزرعوا ضفاف النهر وفهم عقلاؤهم الأمر كله حين جرى الحديث بين البلاد بما فعله ساراج العظيم ! فحملوا الهدايا الى ـ كردستان ـ وعقدوا معها المحالفات وارتفع نجم ـ ساراج ـ عاليا ، وخرست الأصوات التى كانت تشكك فى جدوى مشروعه داخل ـ كردستان ـ وخرست أصوات أخرى فى ـ كسبتان ـ بدأت بالتشكيك فى نوايا ـ كردستان ـ ثم تطورت الى المطالبة بامتلاك مصادر النهر بعد أن وضحت قيمته وجدواه !

وخرست كل هذه الأصوات يا مولاى فقد كان السلام والرخاء يترعرعان مع الحقول التى غطت حدود الدولتين وكادت تمحوها ٠

وكان ـ ساراج ـ فى تلك الأثناء التى استغرقت أعواما وأعواما قد تزوج وأنجب ثلاثة أطفال ، وارتفعت تماثيله فى الميادين، وكان جديرا بأن يصبح أسعد رجل فى ولاية ـ كردستان ـ وأقرب المقربين ٠ للملك ـ رادا ـ لولا أن فكرة ملعونة تيقظت فى أعماقه وراحت تفسد نومه ويقظته ، وتكاد تحرمه لذة الطعام والشراب ٠

ذلك أنه عاد يفكر فى أمر كاد ينساه تماما هو الحل الصواب للمسألة ومع أن موضوع كفاءته لم يعد محل شك من أحد ، ولو أراد الملك ـ رادا ـ نفسه أن يعلن الحقيقة للناس فى أمر امتحان ساراج ما استمع اليه أحد !

مع هذا كله فقد عاد هذا الأمر ينغص عليه سعادته ذلك أن حبه للمعرفة كان لا يقف عند حد ، وكانت ثقته فى أن صحة المبادىء لابد أن تؤدى الى صحة النتائج لاتقف عند حد أيضا ، وأصبح كل همه أن يعرف الخطأ الذى وقع فيه حتى أنه لم يصل الى الحل والصواب ٠

وكم حاول فى لباقة أن يعيد نبش هذا الموضوع مع زملائه الوزراء ، ولكنهم كانوا يضيقون ذرعا بهذه المحاولة وكأنه يدعوهم لأن ينبشوا قبور آبائهم ٠

وكان هذا يزيد من لهفته على معرفة هذا اللغز ، وكأنما أصبح بشقيه أن يكون مدينا بما هو فيه لعطف الملك وسماحته لا لكفاءته هو ٠

وذات ليلة ، وكان يجلس وحده مع الملك يشربان ويسمران ، ويتناجيان : فأجأه ـ رادا ـ بقوله :

ـ أود يا ساراج أن أكافئك على أعمالك المجيدة ، وأتمنى أن تطلب أى شىء لأحققه لك !

وانتهز ساراج الفرصة فقال :

ـ لى مطلب واحد بسيط يا مولاى .

ـ ما هـو ؟

ـ انك يا مولاى لم تترك لى شيئا مما يتمناه النـاس ولكن ثمة شىء بسيط لا أظن .. وقاطعه الملك وهو يعتدل فى مجلسه :

ـ ما هو ؟ قله يا ساراج ولا تتردد .

ـ تذكر يـا مولاى أننى لم اهتد الى الحـل والصـواب فى الامتحان وانه لولا عطفك وتسامحك ..

وقاطعه الملك بنبرة نمت عن عدم ارتياحه :

ـ هذا أمر قد انتهى تماما ، وثق أننى لا أذكر الآن سـوى كفاءتك العظيمة التى برهنت عليها .

ـ أعرف يا مولاى ، وأعرف أننى مدين بكل شىء لتسامحك ولكن حبى للمعرفة يجعلنى الآن لا أتمنى غير أن أتعلم هذا الذى فاتنى .

ـ لست أفهم معنى اصرارك هذا ، وفى الوقت الذى يؤمن فيه كل الناس بكفاءتك ، تبدو أنت وكأن الشك يساورك فيها !

وكانت لهجـة الملك تتغير الى الحـد الذى جعـل ـ ساراج ـ يتشبث برغبته فى عناد مجنون فعاد يقول :

ـ ليس الأمـر أمر كفـاءة يا مولاى ولكن حب المعـرفة هو الفضيلة التى تميز بنى الانسان حتى ولـو لـم تخـدم غرضـا أو انسانا ٠

وتغيرت سحنة الملك مع تغيير لهجته حتى كأنه بلا قناع وقال :

ـ لست أعتقد أن هنـاك معرفة لاتخدم غرضـا وأولى بك يا ساراج أن توضح أغراضك ٠

ـ أقسم يا مولاى أنه لا غرض لى سوى مجرد المعرفة ٠

ـ أما أن تكون أبله يا ساراج وأما أنك تنطوى على أخطر النوايا ، فأى الرجلين أنت ؟

ـ أنا يا مولاى أسير عفوك ، وتلميذ فى مدرسـة حكمتك ولست أفهم سر غضبك ٠

ـ هل أنت مصر على مطلبك يا ساراج ٠

ـ اذا أقنعنى مولاى بأنه لا حق لى فى مثـل هذا المطـلب عدلت عنه ٠

ـ لن أقنعك بشىء من هذا ولكنى فقط أحذرك بأنك قد تدفع حياتك ثمنا لهذا الاصرار ولازلت مستعدا لتجاهل الأمر لو تناسيت هذا الموضوع تماما ٠

ـ منذ منحنى الله حياتى لم أر فيها غير مجرد وسيلة للمعرفة التى نقترب بواسطتها من روح الله ٠

وقاطعه الملك فى ضجر :

ـ أنت مصر اذن ٠٠ (ثم قال كمن يخاطب نفسه) ليست هذه أول مرة أكتشف فيها حمق انسان كنت أظنه أعقل الناس ٠

وترك الملك مجلسه ، وعاد من حجرة جانبية بكراس قدمه لساراج قائلا :

ـ أليست هذه أوراقك ؟

ـ نعم ٠

ـ وهذا خطك ٠

ـ نعم ٠

ـ تأملها جيدا ٠

وتأملها ساراج ، وعبثا حاول أن يكتشف خطأ فعاد يسأل الملك :

ـ أين الخطأ يا مولاى ، لازلت عاجزا عن تفهمه ٠

ـ لن تجده أبدا يا ساراج ٠

ـ لماذا ؟

ـ لأنك لم تخطىء يا بنى !

وذهل ساراج ، وأشار بأصبع مرتعشة الى الحل الصواب الذى يسجله ـ رادا ـ فى نهاية الكراس :

ـ وهذا الحل لماذا يختلف عن حلولى ؟

ـ لأننى لم أضع فى أية مرة اجابة واحدة صحيحة فى ذيل الكراس ٠

ـ لماذا ؟

كانت شفتا ساراج ترتعشان بالسؤال :

ـ لأننى أحب أن ألتقى هنا فى قصرى بأناس تتوافر فيهم قبل كل شىء صفة واحدة هامة ، ليست هى الذكاء وحده ولا الضمير فقط ، بل الثقة العظيمة بالنفس ، أنا فى حاجة الى هذه الصفة فى معاونى أحبها وأخشاها ، وأعرف أنه لا يجرؤ على المجىء

الى هنا الا عدد قليل من الرجال ، لم يرتعبوا لأنهم لم يصلوا الى الحل الصحيح ، بل قدموا من فرط ثقتهم لمناقشتى الحساب ، هكذا جئت أنت ، وهكذا جاءوا كلهم ، وأمام اغراء · المنصب والفرصة والعفو ! ينسى الجميع ما جاءوا من أجله ·

وقاطعه ساراج وقد تسرب الغيظ الى صوته وملامحه :

ـ ولتبق أنت وحدك مقياس الصواب والخطأ وليبق عفوك قبل أعمالهم مصدر الأمان والثقة !

واستطرد الملك فى نبرة يشوبها مرح غريب :

ـ نعم فأنا أحب أن أوجه ثقتهم الى الأعمال العظيمة على أن أظل محتفظا بمقودها فى يدى فالانسان الذى ينقصه شىء ، أو يخاف من شىء هو الذى يتحرك لينجز الأعمال العظيمة ·

كان ساراج يتطلع الى الملك فى ذهول وهو يتابع انفجاره :

ـ ولم تخطىء سياستى أبدا ، فهم لفرط حرصهم لا يتصارحون ولفرط خوفهم لا يتلفتون مرة الى الوراء !

ويأتى يوم يتعلمون فيه الدرس الذى لم تحاول أنت أيها الأبله أن تتعلمه ؟ أو لعلك لا تريد ذلك ·

وتطلع ساراج دون أن ينطق بكلمة :

ـ يأتى يوم ينسون فيه مسألة الصواب والخطأ ، ليس بسبب ضعف ذاكرتهم بل لأنهم من خلال تجربة الحكم يدركون أن هاتين الكلمتين لا تعنيان شيئا ـ أيها الأبله ـ وأن مسألة الامتحان لم تكن الامجرد لعبة لارضاء الناس ، وماذا أفعل أنا مادام الناس لفرط بلاهتهم يؤمنون بأن ثمة مقاييس مسبقة للصواب والخطأ .

ولفرط عجزهم يريدون أن يطمئنوا الى أن حكامهم قادرون على تمييز تلك المقاييس .

ـ ولكنى أنا يا مولاى ولست أظنك تجرؤ على أن تقول عنى أبله أمام الناس أومن بالصواب والخطأ .. ودعنى أسألك ـ ولتنس أن الحديث بيننا تجاوز حد اللياقة هل تسمى ما فعلته مع كسبتان خطأ أو صوابا ؟

ـ لا أسميه خطأ أو صوابا ، لأننى لا أجد معنى لهاتين الكلمتين ، انه مجرد زعم نجحت فى تحقيقه ، وهذا كل ما هناك وفى عالم المزاعم لا أحفل الا بالنتائج ..

ـ كانت نظراتك تؤيدنى أيها الملك هل نسيت ذلك ؟

ـ لو نجح معارضوك لتذكروا أن نظراتى كانت تؤيدهم !

ـ وهل كانوا سينجحون الا فى اشعال نار الحرب ؟

ـ وهل تعتقد أن الحرب لن تعود أيها الأبله ؟

ـ لن تعود مادامت ـ كردستان ـ تتبع سياستى .

ـ أيها المسكين الطيب ، مالم أقتلك أنا ستموت من تلقاء نفسك ويولد فى ـ كسبتان ـ جيل جديد يعتقد أن له حقا فى مصادر النهر ، ويجهل أو يتجاهل كل ما فعلته أنت ، ووقتها من يدرى ؟ فقد يحطم الجيل الجديد فى كردستان ذاتها تماثيلك فوق شاهد قبرك .. أما اذا ساء حظك ولم تمت حتى ذاك الحين فسوف يحطمونها على رأسك .

ـ ولكن الأمور قد لا تجرى على هذا النحو أيها الملك .

ـ نعم ، وهذا يؤيد أنك لا تستطيع أن تجزم بشىء يتعلق

بالمستقبل ، فلماذا أيها الأبله تصر على فكرة الصواب والخطأ ؟ وليست فى جوهرها سوى محاولة متعسفة لاخضاع المستقبل لقواعد الماضى ٠

ـ لا أحبك أيها الملك ولاأفهمك ولا أحب مستقبل حياة لم أجد فى ماضيها شيئا ثابتا أقف عليه ثم التفت ساراج الى الملك وكأنه يراه لأول مرة قائلا فى دهشة : ٠٠ أيها الملك ـ رادا ـ من أنت ؟

ـ أيها الطموح فى غباء ، لقد دفعتنى الى الثرثرة معك طويلا بينما تقاليدنا الملكية تجعلنى لا أفتش فى أوراق وزرائى وبدورهم لا يفتشون فى أوراقى ويسود علاقاتنا صمت ملهم ، ولكن هذه ليست أول مرة ألتقى فيها بأحمق مثلك يعتقد انه يوجد فى هذا العالم أشياء غير ما يفعل الانسان ولكنى أعرف دائما ما يقنع أمثالك ٠

ثم جرد ـ رادا ـ سيفا وأعطى ـ ساراج ـ آخر وقال :

ـ هيا يا صديقى الطيب نتحاور بالسيف فهذه هى الطريقة المثلى لكى يقنع أحدنا الآخر ٠

ـ لا أريد أن أقتلك أيها الملك ، كنت أتمنى أن أفهمك ٠

ـ أيها الأبله ، وهل فهمت كل شىء ، ولم يبق أمامك غيرى ٠

ـ الق القناع عن وجهك اذا كنت تريدنى أن أقاتلك ٠

ـ لا ، ولكنك سترى وجهى اذا قتلتنى لأنك ستكون فى حاجة الى هذا القناع حتى لا ترى وجهك آنذاك ٠

وتثاءبت شهرزاد وهى تقول بصوت يخالجه النعاس ولم يعرف أحد يا مولاى نتائج هذه المبارزة ، وحين حمل الجند جثة

القتيل ، كان ثمة ـ رادا ـ يخفى وجهه خلف قناع وكان الآخـر مجرد جثة ، وفيما يروى الرواة ان كل حاكم حكم تلك البلاد كان يقيم امتحانا كل خمسة أعوام لاختيار معاونيه ، لأن هذه الطريقة فيما زعموا لاتزال أفضل الطرق لكى يسود الاطمئنان فى كردستان وفى غيرها من البلدان ٠

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح ٠٠

مايو ١٩٦٧

الأعــرج

فجأة فقدت القــرية هدوءها ، لم يعــد الزمن فيها يتتبع ظل الشمس ، برز زمن آخر ، له صوت المارشات العسكرية ، واللحن المميز لنشرات الأخبار ، وأرقام البيانات الحربية !

فى الأيــدى وعلى المصــاطب وفى الحقــول ، كانت أجهــزة الترانزستور تستقطب العيون والآذان ، وتجمع القرية فى دوائر أقل حجما وأكثر ضجيجا !!

وفجأة أيضا كف الناس عن أن يحصروا اهتمامهم بالأجهزة الصغيرة الصاخبة التى بدأت وانتهت فجأة كذلك ، وبرزت مصادر أخرى للأنباء ، فبعض الجنود العــائدين من الجبهــة كانوا يمرون بقراهم لساعات قليــلة ، وهم فى طريقهــم الى مراكزهم ، وكانت القرية تملك من هؤلاء عددا كبيرا ، خمسين من شاهدى العيان ، فأى شىء يشفى الغليل أفضل من هؤلاء ؟

ويوما بعد يوم كان يمر بالقــرية واحــد أو أكثر من هؤلاء

الشهود وتلتف القرية حولهم ، وتسمع قصة تتفق أو تختلف قليلا عن سابقتها ، ولكن شيئا واحدا كانت تنم عنه جميع القصص ، وتنم عنه أكثر لهجة الرواة من الشهود !!

والتقط الشيخ عبد الحكيم صوفى القرية ، وفقيهها ، وفليسوفها فى الأزمات ، التقط هذا الشيء ، وقال يوما لمجموعة من الناس كانت تشرب القهوة فى بيته :

ـ انهم محزونون ، ولكنهم ليسوا خجلين من أنفسهم ، ثم أوضح حين استفزه صمت الحاضرين :

ـ الانسان يخجل من نفسه حين يشعر أنه لم يؤد واجبه ، وحينئذ تصبح الهزيمة مرادفة للعار !

ـ لقد أدى هؤلاء الأولاد واجبهم !

ومع أن القصة التى كان يرويها شهود العيان لم تكن تختلف الا فى التفاصيل فان اهتمام الناس بها لم يفتر ، ومع كل قادم جديد كانت القرية تنتظر فى لهفة أن تسمع ما لم تسمعه من قبل وكأن شهادة الغائبين هى وحدها التى ستحل لغز القضية المعلقة ، هى وحدها التى ستجيب على الأسئلة التى بقيت دون جواب ! وحتى حين لم يبق سوى شاهد واحد ، هو ابراهيم بن عبد السلام الخفير ٠٠ انتظر الناس فى لهفة عودته ٠٠ وكأنه وحده سيقول لهم ما لم يقله الآخرون !

ولكن أسبوعا كاملا مضى دون أن يعود ابراهيم ، ودون أن يبعث بخطاب كما فعل غيره ممن لم يتمكنوا من الحضور ، أو حتى يتكلم فى تليفون العمدة الذى أصبح فى هذه الأيام تليفونا للقرية كلها !!

وأصبحت مسألة غياب ابراهيم بن عبد السلام الخفير شغل

الناس الشاغل ، وتطور الاهتمام بأخباره الى اهتمام بأبويه .. كان عبد السلام الخفير الذى ترك عمله بعد أن ضعف بصره قد أصبح ملازما للبيت ، وأصبح من مألوف الناس الكبار الذين لا يعملون فى الحقول أن يمروا ببيت عبد السلام الخفير بعد صلاة العصر ، يتحدثون معه ، ويتلمسون أخبار ابراهيم ، ويتطوع الشيخ عبد الحكيم بتفسير المسألة حين يتطرق الحديث الى تأخير ابراهيم فى العودة .

ـ كثيرون لم يرجعوا بعد فى القرى المجاورة ، ثم هناك تبادل الأسرى وقد نفاجأ الآن ونحن جالسون بقدومه !!

وفوجئوا بأن أسبوعا آخر ينقضى دون أن يعود ابراهيم ، واختلف كلام الناس فيما بينهم عنه مع أبويه !

ـ جايز انه استشهد !

ـ حرب كهذه لا بد لها ضحايا .

ـ أول شهيد نقدمه قريتنا !

ـ لا داعى لأن نفقد الأمل فمسألة الأسرى هذه ...

ـ طبعا كل شىء جايز ، ولو عاد .

تستأنف القرية النظر فى القضية من جديد ، كل الأسئلة والفجوات ، والمؤمنون بأن القضية لم تعرض بعد على وجهها الصحيح ، والحالمون بأن يسمعوا شيئا لم يقله أى واحد ممن جاءوا قبل ابراهيم ، جميعهم عادوا ينتظرون ، وبعضهم أصروا على أن يجعلوا لتأخيره معنى وهدفا ، وبعضهم تواضع فى أهدافه !

ـ لو عاد فسيحكى ما رآه فى بلاد الأعداء !

ـ يعصبون عيون الأسرى فلا يرون شيئا !

– على الأقل يسمع !
– يتكلمون لغة أخرى !
– مهما يكن فسيحكى أشياء عن العدو لم يقلها لنا أحد أبدا !
وباتوا ينتظرون هذه الأشياء ، وينتظرون ابراهيم من جديد !

ولكن أسبوعا ثالثا مضى دون أن يعود ، وبدا وكأن القرية قد فقدت شهوة الحديث ، وأصبحت زيارة أبيه عبئا ثقيلا حتى على الناس الكبار ، كانوا قد فقدوا قدرتهم على مواصلة الأكاذيب والتعللات ، ومع أنها كانت هوايتهم المفضلة فى الظروف العادية الا أنهم بدءوا يملون تلك الهواية ، ولكنهم فوجئوا بعبد السلام الخفير الذى كان اهتمام الناس الكبار به أغرب حادث وقع له فى حياته كلها ، فوجئوا به يتشبث تشبثا شديدا بكل ما صاغوا له من أوهام ، وفوجئوا به يرددها لهم حين كفوا عن ترديدها ، وحين تباعدت زيارات الناس لبيته استند على عصاه وراح يطرق بها أبواب بيونهم !!

وتململت القرية من هذه الطرقات التى لا تفرق بين صغير أو كبير ، ولا تفرق بين الليل والنهار ، ولكن أحدا لم يجرؤ على أن يصم أذنيه دونها ، كما لم يجرؤ أحد على أن يصارح الرجل بما كانوا يتصارحون به من أنه قد فقد عقله تماما !

ويوما طرق باب العمدة ذاته ، كان يحفظ الطريق الى بيته منذ كان خفيرا ، ومنذ كان ابنه ابراهيم يزرع فى أرض العمدة وفوجىء العمدة بعبد السلام يسأله ان كان ابنه قد اتصل به بالتليفون ؟

وأجلسه العمدة بجواره متلطفا ، فى نفس المكان الذى جلس فيه ابراهيم ابنه منذ عام واحد ، ومن نفس المكان قال ابراهيم للعمدة ، وهو ينفض نوبه قبل أن يجلس :

ـ لن أقدر على دفع الجنيهات العشرة الباقية من الايجار ، ولو أمهلتنى لزراعة البرسيم !

ـ ولكنك وقتها ستكون مطالبا بايجار البرسيم ·

ـ جايز ربنا يبارك فى البرسيم ·

ـ وجايز تأكله الدودة ·

ـ يريد أبى أن يعمل عملية فى عينيه !

ـ اذهب به الى المستشفى !

ـ حتى فى المستشفى سنحتاج الى هذا المبلغ !

ـ أبوك رجله فى القبر ، ومادام الواحد منا يبصر طريق الجامع !

وكرر عبد السلام الخفير سؤاله للعمدة الذى لم يسعفه الجواب وفكر العمدة قليلا قبل أن يقول :

ـ نعم اتصل بى !

وانتفض العجوز ، وأفلتت عصاه من يده ، وهو يردد :

ـ ابنى لم يمت !

ـ نعم ·

ـ ومتى سيرجع ؟

لن يرجع فى هذه الأيام ، قال لى لن نعود قبل أن نطرد الأعداء ·

ـ قال ذلك بنفسه !

ـ نعم !

الحمد لله الحمد لله ·· !

وأضاف العمدة بلهجة غفيضة .

ـ طلب منى أن أعطيك عشرة جنيهات تنفق منها حتى يعود .

وصمت الرجل وكأنه لم يسمع ما قاله العمدة الذى راح يوضح كلامه .

ـ هذه الفلوس تخص ولدك ، كان عاقلا ، ويدخر عندى ما يتوفر له من زراعة الأرض ، وما تحتاجه فهو عندى ، المهم أن يبقى الأمر سرا .

وكان الحاج منصور تاجر القماش فى القرية أول من سمع السر حين طرق عبد السلام الخفير باب دكانه ، فى البداية ضايقته القصة ولم تلبث أن أراحته !

فآخر مرة رأى فيها ابراهيم كانت حين طلب منه فى نفس الدكان أن يقطع له جلابية جبردين !

يومها رد باندفاع :

ـ ليس فى الدكان جبردين !

وأوضح ابراهيم بلهجة اعتذارية أنه دخل الجيش ، وحين يأتى فى أجازة يحضر أقاربه لزيارته ، ولابد أن يكون لديه ثوب مناسب ، ولا يعقل أن يقابلهم بالبدلة الميرى !

ـ وما عيب البدلة الميرى ؟!

ـ لم يفعلها أحد قبلى ؟!

ـ افعلها أنت !

يومها قال الحاج منصور لنفسه :

(وهل يعقل أن أبيع قماشا جديدا لمن لم يسدد ثمن القماش القديم) ·

ولو فعل ذلك لبقى فى الدكان ولا عمل له سوى طرد الذباب !

ولكنه فى هذا اليوم قال لعبد السلام الخفير معلقا على القصة التى سمعها منه :

ـ ابنك أفضل الأبناء ··

ثم أضاف : فى آخر مرة كان هنا أوصانى بأن أحضر لك ثوبا من الجبردين ، كان يريد أن يقدمه لك حين يعود ، فماذا أردت الآن ··

ـ لا لن آخذه الا من يده !

ـ على كل حال أنا تحت أمرك !

أم ابراهيم هى التى انزوت فى بيتها تبكى مرتين ، مرة على ابنها الغائب ، ومرة على زوجها ، وفى كل مرة تفتح الباب وتقفله لأن طفلة صغيرة جاءت تحمل احدى هدايا القرية التى راحت تتوالى على بيت عبد السلام الخفير ، كانت لا تفتح فمها بكلمة واحدة ولا حتى بكلمة شكر !

لم تفتح قلبها لأحد الا لهنية حين تجىء لزيارتها ولتحمل لها الماء من المجموعة !

ـ ماذا تسمعين من الناس ، هل سيعود ابنى ؟

ـ سيعود يا خالتى أم ابراهيم ·

ـ كان يحبك ، لم يحب أحدا غيرك !

وتصمت هنية ، ويلوح لها وجه ابراهيم جافا ترطبه ابتسامة

شاحبة ، ولمغة عرق شبه دائمة ودائما كان فى عجلة من أمره الا حين يلقاها ·· ليقول لها فى تؤدة !

– ولكنك تحبين هاشم ·· عينك عليه يا متعوزة !

ولا ترد عليه هنية لا مصدقة ولا مكذبة ·

– أنا أحبك ·· لا تنظرى الى فوق ·· أنا رجلك ·

وتنفلت منه قائلة فى دلال :

– منذ لحظه كنت بكامل عقلك !

هى التى قد فقدت عقلها حين تركته ، عين فى الجنة وعين فى النار ، لو أنها توقفت قليلا ، لو أنها قالت له كلمة طيبة ، لو أنها كانت تعلم الغيب ، لو أنه يعود ! ، لو أنها كانت تدرك أنها تحبه الى هذا الحـد !

وكان من عادة حسنين الأعرج عاطل القرية وشريدها ومهرجها أن يضحك من كل شىء ، ومن كل أحد ، ولكنه فى هذه الأيام لم يكن يضحك ، ربما لأنه ضحك يوما من ابراهيم حين أصبح جنديا فى الجيش ، لم يجد فى الأمر سوى نكتة قال له :

– بعد أن تخرج من الجيش تصبح خفيرا مكان أبيك ·

قال ابراهيم بجد :

– سأبقى فى الجيش ·

وواصل الأعرج ضحكاته ·

– وهناك سيعينوك خفيرا لحراسة المهمات !

– لا أحب كلامك الفارغ ·

ـ ولكني احبك يا أبا خليل !

وحين كاد الناس ييأسون من عودة ابراهيم بقى وحده ينتظر ، وحين رأى عبد السلام الخفير ، وهو يتكوم وحيدا أمام باب داره ، وحين رأى الباب لا يفتح ولا يغلق ، وحين رأى يأس الناس يتحول الى دموع ، عاجلهم بقصة هزت القرية من جديد !

وتساءل الناس ممن تلقى الرسالة التى بعث بها ابراهيم وقال فيها انه عائد بعد أسبوع !

ـ الشيخ عبد الحكيم !

ـ الأمر حقيقى اذن ؟

وكان هو الأعرج الذى بعث بالرسالة من البندر ، ووقف يرقب ، فى نشوة ، عبد السلام الخفير وهو يطفو من جديد على وجه الدنيا وبابه يفتح ويغلق ، والهدايا تأتى من الصغير ومن الكبير ، والذهول يتبدد ، والأسئلة تعود ، والقضية تستأنف ، وقال الأعرج لنفسه :

ولكن ابراهيم قد يجىء حقيقة هذه المرة فيجد القرية كلها قد صنعت له شيئا عداك أنت !! أنت وحدك لن يذكر لك سوى أنك سخرت منه ! فقط قال : لكن شخصا مثلى ماذا يمكنه أن يفعل له ؟

ويوما شاهد الناس حسنين الأعرج خارجا من دار ابراهيم وصرخوا فى وجهه :

ـ ماذا كنت تفعل هناك ؟

وغاظه السؤال فهدر قائلا :

ـ كل الناس يزورونهم !

-- يريد الأعرج أن يكون مثل بقية الرجال !

وتوالت الصيحات .

ـ فتشوا الأعرج قبل أن يخفى ما سرق !

ـ صاحب الدار أعمى وضيفه لص !

ـ يا أولاد ال ...

حين يعود ابراهيم لن يسمح لمثلك بدخول بيته !

وصرخ الأعرج .

ـ سيكون مجنونا لو عاد ، طول عمره كان هنا فماذا فعلتم به يا أولاد اللصوص !؟

ـ اضربوا الأعرج !

وجرى فلم يلحقوا به .

ولكن حكايته تلك تنغص القرية ، وكانت القرية حريصة على أن تذود هذه الحكاية عن قصة ابراهيم كما تذود الذباب عن طعام نظيف :

واختفى الأعرج عن القرية ، لم يكن هناك حين عاد ابراهيم ذات ليلة ، فلم تعرف القرية كيف عاد الا فى الصباح !

وفى الصباح ، التفوا حوله ، وتوقفت الأسئلة فى حلوقهم ، كان يسلم عليهم بيد ويستند بالأخرى الى عصا خشبية تحل مكان ساقه المدلاة ، والمضمدة بالأربطة :

ولكن الأسئلة التى ألجمتها المفاجأة عادت تحاصره ، ولم يخلصه منهم سوى الشيخ عبد الحكيم .

ـ دعوه ينام ، ألا ترون كم هو متعب ؟

وسأله أبوه :

ـ طردتم الأعداء ؟

فلم يرد ·

ـ دعه يستريح يا عم عبد السلام !

وعاد أبوه يكرر ·

ـ لابد أنهم طردوا الأعداء !

ـ دعه يستريح يا عم عبد السلام ·

وكان ابراهيم هو الذى بدأ يسأل أهل القرية ، حين مضت أيام زاره فيها كل الناس عدا الأعرج ، بدأ يسألهم عنه !

وفوجئوا ، وصمتوا ، ماذا يقولون له ، قال أحد الجالسين :

ـ أنا أعرف أين هو !

وتطلعوا اليه وتطلع ابراهيم أيضا !

ـ تطوع فى المقاومة الشعبية فى البنادر وبقى هناك !!

وانفجروا ضاحكين ·

ـ ماذا يفعلون به هناك ؟

قال الرجل ·

قالوا نه نفس الكلام لكنه أجابهم : دعونى أحرس المهمات فلا يقترب منها أحد !

ـ قبلوه ؟

– نعم .

وتطلعوا الى ابراهيم ، ولحظتها فقط أدركوا أى خطأ سخيف تورطوا فيه بما قالوه عن الأعرج !

قال ابراهيم فى مرارة محاولا أن يضحك :

– أنا وهو نصلح جنديا كاملا !!

الشيخ عبد الحكيم وحده هو الذى بدأ يفكر فى لغز الخطاب الذى عرف أن ابراهيم لم يبعث به أبدا ، وكان ذلك حين وصله خطاب آخر يزعم صاحبه أنه ابراهيم ، وأنه سيعود ، ويوصى الشيخ عبد الحكيم وأهل القرية بأبيه وأمه وأخيه الصغير !

وحين أطلع ابراهيم على الخطاب قال بصوت محتبس :

– ومن يكون غير الأعرج ؟؟

وتعمد الشيخ عبد الحكيم أن يذيع قصة الأعرج على القرية التى كانت لاتزال تحاصر ابراهيم فى محاولة أخيرة ويائسة لتعرف الحقيقة الكاملة ، ولتملأ الفجوات ! القرية التى بدأت تتململ حين وجدت أن ابراهيم مثل غيره ممن جاءوا لا يعرف الحقيقة الكاملة وان كان نفسه قد أصبح جزءا صغيرا منها !

ولكن القرية لم تعد لذهولها القديم ، كانت قصة الأعرج التى عرف الشيخ عبد الحكيم كيف ينشرها فى جلساته ، وكيف يربط بين قصة الأعرج الذى جاء والذى ذهب !

وكانت هذه القصة توقف القرية على رجل واحدة وتضعها أمام موقف جديد لم تكن مهيأة له من قبل !

وأوضح الشـــيخ عبد الحكيم كعادته هذا الموقف حين قال للنـــاس :

الحقيقة الكـــاملة لا يقولهـــا أو حتى يعرفهـــا رجل واحـــد أو مجموعة من الرجال ، ثم أضاف وهو يعبث بحبات مسبحته :

الحقيقة الكاملة هناك وليست هنـــا ! الأعرج وحـــده عرف الطريق اليها ، هناك يمكن أن نعرف الحقيقة الكاملة واذا لم ترق لنا فيمكن هناك أن نصنع الحقيقة التى نريد !

يولية ١٩٦٧

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

هل يموت الأب ٠٠ ؟

ـ ماما ٠٠ لماذا تقفلين الراديو ؟

ـ تستطيع أن تفتحه حين تريد ٠

ـ ولكنك تقفلينه فى كل مرة أفتحه فيها !!

ـ رأسى يتعبنى قليلا هذا المساء ٠

ـ هل هو يتعبك دائما ياماما ؟

ـ نعم ٠٠ لا ٠٠ !

ويصمت « راشد » قليلا ، بينما تخطو أمه فى اتجاه حجرة النوم ، وتتوقف حين تجذب أطراف ثوبهـا قبضة صغيرة ، وتلتفت الى الوراء لتجد طفلها قد ألقى بقامته الى الوراء مطمئنا الى أن الثوب قد تحول الى أنشوطة محكمة ، تنجح دائما فى أن توقف أمه حيث يريد ، وتسمح له بأن يميل بجذعه الى الوراء ، الى أقصى الوراء ، دون أن يخشى السقوط ٠

وفى استسلام تعود اليه ، تتصنع له من صدرها وذراعيها أنشوطة أرق !

ـ لم تعد صغيرا يا حبيبى .. أصبحت رجلا .. بعد شهرين يكون عمرك تسع سنوات كاملة . فلماذا تفعل ذلك ؟

ـ ونحتفل بعيد ميلادى ؟

ـ نعم .

ـ حفلا كبيرا ، نفتح فيه « الراديو » وندير « البيك أب » ، ونلعب كلنا ؟

ـ نعم .

ـ وتصنعين « تورتة » كبيرة ونوقد الشموع . ونعلق ال

ـ نعم .. نعم .. نعم .. !

مازال رأسك يتعبك ياماما .

ـ نعم .

ويصمت « راشد » لحظات ، تتحفز خلالها ملامحه . وكأنما يتحسس بصوته الطريق الى أذنى أمه ، وبنبرة لا يمكن أن تكون لطفل فى التاسعة من عمره .

ـ ومن سيحضر الحفل ياماما ؟

وتبدو الأم وهى تقيس السؤال ، وهى تسبره ، وكأنها وقعت فى أنشوطة من نوع لا فكاك منه .

وتقول فى استسلام يائس هذه المرة .

ـ خالك .. وعمك .. وجميع من تحبهم من أصحابك .

ـ أريد أن يحضر بابا هذا الحفل ؟

اذا انتهت مهمته سيحضر بالتأكيد .

ـ ومتى تنتهى مهمته ؟

وبكل ما تقدر عليه من هدوء قالت :

ـ لست أعرف .. قلت لك كثيرا لست أعرف .. ثم أضافت وكأنها تعتذر له : حين تنتهى مهمة بابا سيبعث لنا برسالة يخبرنا فيها بموعد حضوره ..

ـ ولكن بابا يعرف أن عيد ميلادى بعد شهرين .

ـ نعم .

ـ سيحضر .. لابد أن يحضر ، ويحضر معه .. و .. و ..

وتنتهى مراسيم الابن حين ينام ، النوم وحده هو الذى ينقذها من تلك المطاردة التى تتكرر كل يوم بطريقة مختلفة ، ولكنها لا تنتهى أبدا .

فى ضوء مصباح خافت الضوء تبدأ مراسيم الأب ، تبدأ فى كل ليلة حين تتمدد فى فراشها ، فتصبح صورة الأب فى مواجهتها تماما ، تطل من اطار من الخشب المحفور المذهب ، منذ أكثر من عشرة أعوام وهو فى وقفته تلك ، على شفتيه نفس الابتسامة الخفيفة الواثقة ، بنفس ثيابه العسكرية . بنفس رتبته القديمة .. لقد حاز بعدها أرفع الأوسمة والرتب ، ولكن تلك الصورة القديمة هى أقرب صورة الى قلبها ، فهى صورة حبها الأول . وصورة زوجها ، ومنذ أنجبا طفلهما « راشد » ، أصبحت صورة بابا ، « بابا » الأسرة كلها ، وكانت تحب أن يكون لها « بابا » صغير مثله ..

منذ شهور دعى ليشترك فى تلك الحرب الأخيرة التى نشبت فجأة ، وانتهت فجأة كذلك ، ولم يعد ، وانتظرت أياما وأسابيع وشهورا ، ولم يعد ، ولم تكن وحدها التى تنتظر عودته ، كان « راشد » ينتظر بدوره ، ولم يكن من السهل أن تقول « لراشد » كل ما يمكن أن تقوله لنفسها ، وكان عليها أن تجيد فى وقت واحد عدة لغات ، فى النهار كانت تتحدث بلغة الناس ، تتحدث الى شقيقها ، وشقيق زوجها ، الى الضيوف والأصدقاء والجيران ، والأهل ..

وكانت لغتهم صريحة وشبه قاطعة ، صحيح أن أحدا منهم لا يتكلم بشكل قاطع عن موت الأب ، ولكنهم جميعا كانوا يعاملونها كأرملة شهيد أدى واجبه ، والدولة بدأت تصرف معاشه الشهرى كالشهداء تماما ، ولكنهم جميعا وافقوا على أن تتحدث مع الابن بلغة مختلفة .

وألمحوا الى سنه الصغيرة ، وتذكروا تعلقه الشديد بأبيه ، وأكدوا أن مصارحة الطفل بحقيقة الموقف ـ الآن على الأقل ـ قد تحدث له صدمة تؤثر على مستقبله كله .

وقال خال الطفل : مع الوقت سيألف غيبة أبيه ، وآنذاك لا تنطوى مصارحته على أية أخطار .

ولا تدرى هل قبلت نصائحهم تلك لأنها أكثر منهم خوفا عليه أم خوفا منه ، كانت تشعر بطريقة ما ، وكأنها مسئولة عن فقد الأب ـ ان أحدا لا يحملها هذه المسئولية ـ ولكنها كانت تشعر أن طفلها هو الوحيد الذى سيفعل ذلك ، وهل يملك طفلها وسيلة للحكم على الأشياء ،سوى ذلك الشعور الطفولى الذى لا يمكنه الفصل بين أمه وأبيه ، كوجهين لحقيقة واحدة ، حقيقة توفر له الأمن والسلام والسعادة ، وهذه كلها لا تتوافر الا حين يكونان معا ، كما يكون

جناحا الطائر ، وحين يختفى أحد هذين الوجهين . فمن يكون مسئولا أمام شعور ابن الأعوام التسعة سوى الوجه الباقى .. وجه الأم .

وهكذا ولدت لغة الابن ، لغة المطاردة التى تتكرر كل يوم ولا تنتهى أبدا ، ولدت من الحب والخوف معـا ، وتطورت لتصبح طقوسا ومراسيم تؤديها الأم كل يوم مع ابنها وتنتهى حين ينـام الطفل .. لتبدأ مراسيم الأب ، لتبدأ لغة قلبها ، لغة بلا حروف ، لغة الدم الصاعد الى الرأس أحيانا ، والأطراف المثلجة أحيانا أخرى، لغة العرق والارتجاف واللوعة ، والقلب الذى لا يزال يدق بعنف ، حين يدق جرس الباب أو جرس التليفون ، حين تسمع صوتا غريبا ، لغة الحلم الغامض ، والأمل الذى لا يختفى ولا يبين والانتظار الذى يصبح فى وقت واحد أفضل غذاء للأمل واليأس ، انتظار أن يعود الأب ، ذات صباح ، أو ذات مساء ، ان رؤية الموت أعظم تبرير له ، واعتذار عنه ، وكيف يصدق قلبها أنه مات حقا دون أن ترى موته ..

ها هو يطل عليها من اطاره الذهبى ، واقفا لا يزال ، لايضجره الوقوف ، ولا يمل الابتسام ، ها هو شاب دائما ، طموح أبدا ، حالم بكل شىء عدا الموت ، أشد حياة من كل شىء فى هذا العالم الذى يلفه السكون ، وأكثر الناس قدرة على أن يفهـم لغة قلبها ، تلك اللغة التى لاتزال ترق وتصـفو حتى ليمكن أن تتبادلها مع طفلها الراقد بجوارها حين تنام ، حين يضمها معه فراش واحـد وحلم واحـد ..

فى الصباح يذهب « راشد » الى المدرسة ، وفى المساء يعود ، فى كل صـباح تدرك أمه وهى تودعه أمام « الفيلا » الأنيقة ، أن ذراعيها قصيرتان جدا ، لن تصلا الى كل مكان يذهب اليه ، لن تكونا

معه دائما ، وفى كل مساء تدرك أنها تتسلم طفلا آخر ، مختلفا بعض الشىء ، طفلا يلتقى بمن لا يشاركونها الخوف عليه أو الخوف منه ، طفلا يسمع ويتكلم لغة لا تعرف كل طقوسها ، وحين تبدأ مراسيم المطاردة اليومية ، تتعلم شيئا عن هذه اللغة ، « فراشد » يدرك على نحو ما أن بلده كانت تحارب ، وأنها خسرت الحرب ، وأن الأعداء يحتلون جزءا من بلده ، وأن الحرب قد تقوم من جديد ، وأن أباه هناك ليطرد الأعداء ، ومن أسئلته التى لا تنتهى عن الحرب ، والأعداء ، وأصوات المدافع ، وذكريات الظلام حين ينقطع النور فجأة ، وعن أبيه ، من كل هذه الأسئلة كان يفتل حبال أنشوطته اليومية ، أنشوطة تتسع كل يوم ، وتلتهم فى شراهة حكايات الأم واعتذاراتها ، وتبريراتها وتوشك فى النهاية أن تلتهم صبرها ..

ذات مساء سأل « راشد » أمه :

ـ لماذا لا يجىء بابا ؟

هكذا جاء السؤال ، بلا مقدمات ، بلهجة باترة تشى بنفاد صبره هو الآخر ، باحساسه بأن فى المسألة سرا ، وبأنه يريد أن يعرف هذا السر ، بأن لديه هو الآخر مصادر أخرى للمعرفة وبأن أمه ليست هى أم الدنيا كلها ، وبأن اللغة التى يسمعها منها كل يوم ليست هى أصدق اللغات .

وتصرخ الأم هذه المرة ، تصرخ بعنف :

ـ لست أعرف .. أنا مثلك لا أعرف .. قلت لك ألف مرة لا أعرف .

كانت تلك هى المرة الأولى التى يرتفع فيها صوتها الى هذا الحد ، والمرة الأولى التى يخرس فيها الصبى تماما ، وكأنه فقد القدرة على النطق والرؤية والسماع . وتضمه الى صدرها بنف بأعنف من

صراخها ، وتشعر أن ذراعيها طويلتـان ، وأنها تطوق بهما العالم ، ويشـعر هو أنها أم الدنيا كلها · وكان عمر شعورها وشعوره مجرد لحظة بعدها تناسى تماما مسألة أبيه ، ليتذكر العيوب والنقائص فى كل شىء ، فى البيت والطعام والثياب واللعب ··

تنازل عن أبيه ليطلب كل ما يقدرون عليه ، وتستحيل رغبته فى امتلاك الأشياء الى رغبة فى تدميرها ، وحين لا يجد ما يدمره يبدو وكأنه يريد أن يدمر نفسـه ، فلا يتعلق الا بأرق غصن فى أشجار الحديقة ، ولا يمشى الا فوق الحرف المدبب للسور ، وتحول مزاحه مع الأطفال فى الشارع الى شجار ، يعود منه كل يوم ممزق الثياب ، والجلد ، ملطخا بالدم والتراب · وتفشل عشرات اللعب والزيارات والوعود التى يبذلهـا خاله فى أن تجعل منه ذلك الصبى الهـادىء الذى كانوا يعرفونه ·

ذات مساء يقول خاله لأمه :

أعتقد أن الوقت قد حان ليعرف الحقيقة ··

تقبض وجه الأم ، قالت بعصبية أصبحت احدى لوازمها ·

ـ هل تظنه سوف يحتمل ؟ هل تظنه سيهدأ ؟ هل تظنـه سيفهم ؟ هل تظن آلامه ستنتهى ؟

ـ أخشى أن يعرف الحقيقة من غيرنا فيفقد ثقتـه فينـا ، وفى نفسه ·

ـ أية حقيقة تعنى ؟ قالتها الأم وهى تحدق فى وجه شقيقها ، وكأنها تسمعه لأول وهلة ·

ـ موت أبيه ·

قالها بذهول ثم تابع فى دهشة :

ـ ماذا قلت ؟

ولاذت الأم بصمت عميق ، صـمت لم يجرؤ شقيقها على أن يخدشه مكتفيا بمواصلة التحديق فى وجهها والاشفاق عليها ..

ولكنه هو « راشد » فاجأهم بما لم يتوقعوه أبدا ، وقبل أن يصارحوه بأية حقيقة .

ـ ماما .

تطلعت اليه أمه فى لهفة ، كان يتكلم بهـدوء غـريب ، وكان يتحرك بنفس الهـدوء متحدثا لأمه ، متجاهـلا خالـه الذى يجلس بجوارها فى تلك الليلة ..

ـ بابا أرسل لى خطابا .

ـ ماذا تقول ؟ أين ؟

قالتها الأم بلهفـة وبلا تفـكير ، واستبد القلق بشقيقها ، وبتقطيبة حادة فى وجهه حاول أن يلفتها الى خطورة الموقف .

ـ طلب منى ألا أريه لأحد .

ـ أين الخطاب ؟

وصرخ شقيقها : يا مجنونة . ثم استرد هدوءه فى محاولـة يائسة لتغيير الموضوع محاولا أن يمسك بيد الصبى .

ـ الليلة سنسهر معـا فى مدينـة الملاهى ، ونركب القطار الدوار .

ـ قال لى بابا ، لا تذهب الى مدينة الملاهى ..

قالها الصبى وهو يسترد يده من يد خاله .

ومن جديد حاول خاله أن يمسك بأى شىء فسأل الصبى :

ـ ماذا قال لك بابا ؟

وقبل أن يرد « راشد » واصل خاله اجتذاب الخيط الذى أمسك به ٠

ـ سأحقق لك كل ما يقوله بابا ٠

وارتسمت على شفتى « راشد » ابتسامة من كسب الجولة فلم يطلب أى شىء آخر ٠٠ ثم ان رغباته الجديدة أصبحت تتقدمها كلها هذه اللازمة :

ـ بابا يريد ٠

ـ بابا يقول ٠

وأصبح يمارسها بهدوء أكثر ، بهدوء صاحب الحق ٠

وقال لهم الطبيب : ليس ثمة ما يدعو للقلق ٠ ثم سأل ٠

ـ هل تغيرت مطالبه التى أصبح يفرضها باسم أبيه ؟

قال خاله ، لم تتغير ، لايزال يسودها العنف والقلق والحدة ٠

وقالت أمه : اتسع نطاقها بعض الشىء ، يحاول اصلاح سور الحديقة ، وسلم البيت ، وفى الجملة يقلد أباه فى نزق ٠

قال الطبيب :

ـ لماذا لا تشاركونه فى نفس اللعبة ؟

ثم أوضح كلامه قائلا :

ـ لماذا لا يرسل « بابا » خطابات أخرى لكم ، بحيث تصبح نصائحكم له ، بل أوامركم هى أوامر « بابا » نفسه ٠٠

ولم تكن الأم مستريحة لهذه اللعبة ، ولا راضية ، كانت أسطورة « بابا » تتضخم ، وتصبح حقيقة غريبة غير متجانسة فبابا الطفل جسور عنيد مغامر ، وبابا الأم عاقل وهادىء متردد ، بابا الطفل يطارد اللصوص والأعداء ويتكلم بلغة الشارع والمدرسة والنادى ، وبابا الأم يذاكر دروسه ، وينام مبكرا ويحافظ على ثيابه ولا يستقر على لغة واحدة ..

وبات واضحا أن البيت الواحد لن يتسع لرجلين كليهما من طراز مختلف ، وأن لحظة الصدام بين الرجلين تقترب لا محالة .

ذات مساء ، كانا وحيدين ، الأم والصبى ، وكان المذياع مفتوحا على نشرة الأخبار .

قالت الأم فى تخاذل :

ـ بابا يريدك أن تنام مبكرا .

ـ لا أريد أن أنام الآن .

كان المذيع يصف فى تلك اللحظة ، اشتباكا عسكريا حدث بيننا وبين الأعداء ، سقط فيه عدد من الضحايا .

ـ بابا قال فى رسالته لابد أن ينام « راشد » مبكرا .

ـ أين رسالة أبى ؟

دهمها السؤال ، كان ينصت الى المذياع ويحدق فيها ، قالت فى يأس :

ـ ألا تصدق ماما ؟

ـ لا ..

ضمته الى صدرها بقوة لتخفى وجهها عن عينيه ، كانت تسمعه فى وضوح وهو يقول خلال شهقاتها :

ـ بابا قال لى : انه مات فى الحرب ..

وارتجفت يداها حول جسده ، لم تكن تدرى أهى تسنده أم تستند اليه ، كل ما تدريه أنه لم يتأكد لديها قبل هذه اللحظة موت الأب ، أو ربما أنه لا يموت أبدا ..

★★★

فى الصباح ذهب « راشد » الى المدرسة ، فى المساء عاد . خلع ثياب المدرسة ، أمسك بفأسه ليواصل اصلاح الجزء المهدم من سور الحديقة ، كانت تلك أول مرة يفعل فيها ذلك دون أن يقول :

ـ بابا يريد .

وقفت أمه ترقبه من بعيد ، ترقب الفأس وهى تسقط بجوار قدمه ، فلا تشعر بالخوف عليه أو منه .

★★★

حين دق جرس الباب الخارجى ، لم يختلج قلبها ، ولم تتقدم لتفتحه « راشد » سبقها الى الباب ليتسلم بيده خطابا من موزع البريد .

ـ المدرسة تدعوك لحضور الحفل التمثيلى الذى تقيمه ، ثم أوضح ، ألعب دورا هاما فى الرواية الجديدة التى تقدمها المدرسة .

فى صالة المسرح كانت الأم تجلس بين النظارة ، على المسرح كان « راشد » يلعب دور البطولة ، وكان الممثلون الصغار يتكلمون جميعا لغة واحدة ، وكانت الأم وكل الأمهات فى الصالة يفهمن نفس اللغة !!

فبراير ١٩٦٨

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

ذلك الشـــتاء

● المقـــدمة :

بى ضعف شديد ازاء الشتاء ، أحبه بقدر ما أخافه ، تجىء فيه لحظة لاتنذر بقدومها ، تعيدنى الى تجربـة لا أستطيع أن أنساها ما حييت ، والغريب أننى لا أستطيع أن أذكر كل شىء عن تفاصيلها ٠

كل شىء غامض مقرور تكسـوه ظـلال السحب الكثيفة فى ذلك اليوم ، ويرتجف بقطرات المطـر وبرياح لم تجد ما يعوقها خلال الحقول المنبسطة على مدى البصر ، أشياء بعينها هى التى بقيت واضحة فى رأسى وضـوحا يستحيل معه أن أنسى هذه التجربـة ٠٠الطريق من قريتنا الى المدينـة الصغيرة التى استقل منها القطار الى عاصـمة الاقليم ، طريق ترابى متعرج مع الترعة الموازى لها ، عربة تاكسى أجـرة رماديـة تقطـع بى نفس الطـريق ، تغص بالمسافرين ، وبأمتعتهم فى الداخل والخارج ، عربة من ذلك الطراز الذى يمتد على جانبيـه افريزان يحمـلان على جانبى العربـة من الركاب مثلما تحمل فى داخلها ، وتبدو العربة فى مثل ذلك الشتاء وكأنها تتدثر بركابها من البرد ٠٠

الطريقة التى يدير بها السائق محرك العربة بواسطة ذراع حديدية تشبه نصف الصليب المعقوف ، يضعه فى فتحة مخصصة له فى مقدم العربة ، ويهوى بجسمه كله ليصنع بنصف الذراع نصف دورة ، ثم تتابع الدوائر قبل أن يبدأ المحرك فى الدوران . ثم يأخذ السائق مكانه أمام عجلة القيادة بينما تزفر العربة ببخار مكتوم يدفىء الرجل الجالس على مقدمتها يديه بتقريبهما منه ..

اصرارى على أن أذكر كل هذه التفاصيل التى تبدو لى الآن بلا معنى جزء من ضعفى حيال الشتاء ، وحيال هذه التجربة التى لا أدرى لماذا تصر .. وربما أنا الذى أصر على مطاردتها بعد كل هذه السنين ؟

وعلى أن يبقى أكثرها غامضا شديد الغموض ، وعلى أن يحتفظ بعضها الآخر بألوانه ، وبأدق تفاصيله ، وبروائحه ..

يكفى أن تختفى السماء خلف السحب ، وأن يغشى العالم ذلك الظلام الخفيف المنذر ، وأن تتساقط أوراق الشجر ، وتتصاعد روائح الأرض الرطبة حتى أهرع الى الشرفة أو الى النافذة ، أبحث عن وجوه الأطفال الذين ينتظرون فى لهفة ومرح ـ وراء زجاج النوافذ ـ هطول المطر ، وأتابع هجرة الطيور الى أعشاشها ، وتجمع القطط والكلاب معا دون شجار تحت الأسقف القريبة ، وأعجب لأن غرائز الحيوان أصدق من غرائز الأطفال وأحكم ..

هذا ما كنت أردده أحيانا اذا سألنى أحد من أفراد أسرتى لماذا تقف هناك فى هذا الوقت ؟

وفى الحقيقة أن مجىء مثل هذه اللحظة فى أى شتاء يكفى لكى ينقلنى الى تلك العربة الرمادية التى كنت واحدا من ركابها منذ ما يزيد على عشرين عاما ، عبثا أحاول الآن أن أتذكر وجه واحد من ركابها أو حتى اسمه . ولكننى أذكر الجلباب الأزرق

الذى كان يرتديه أحد الواقفين على افريز السيارة الخارجى بحيث تحجب زرقة ثوبه عن عينى زرقة السماء وأنا قابع فى ركن العربة ، وأذكر أننى وقتها فكرت فى « أن زرقة ثوبه تختلف كثيرا عن زرقة السماء ، وأنه لا يصلح بديلا للسماء فى هذه الرحلة » ٠

يومها ضحكت من هذه الفكرة البلهاء ضحكة فاترة ، وربما أننى ضحكت حين حاولت أن أتأكد من أن هذه السماء القريبة قد أضحت فى متناول يدى فأعادنى زجاج نافذة السيارة الى صوابى ٠

وعجبت لأننى أسلك بهذه الطريقة فى يوم كذا ، ذلك أننى فى هذا اليوم كنت حزينا جدا ، أجل حزينا جدا ٠٠ حتى أننى خجلت من هذه الضحكة الفاترة التى لم يسمعها أحد ٠

الآن لا يمكننى أن أذكر سببا واحدا من أسباب هذا الحزن ، ولكننى أتذكر بيقين أنه لم يكن ثمة سبب واحد فقط ، كانت هناك أسباب عديدة ٠٠ وربما متباعدة فى الزمان والمكان ، ولكنها مثل سحب ذلك اليوم كانت على موعد ، فصنعت ذلك الحزن الكبير الذى كنت أعانيه ، تجمعت من هنا ومن هناك ، وفى مكان من قلبى ، مكان صغير لا يكاد يتسع لها ، تجمعت ، لعل هذا سبب شعورى وقتها بأن شيئا فى داخلى سوف ينفجر ٠

ومع أنى لا أذكر الآن أسباب هذا الحزن القديم ، فاننى أذكر الحزن ذاته ٠٠ لا بل أعانيه الآن ، وأنا واقف فى الشرفة تفصل بينه وبينى السنون والمسافات ، حزنا شتائيا مقبضا متربا ، كظيما لاهثا ، حزنا يجعلك تنفصل عن كل شىء ، وتفكر فى أى شىء دون علاقة أو هدف ، ويشعرك فى نهاية الأمر بالعجز ٠٠ العجز الكامل المطلق حتى عن أن تمسك بالسماء وهى فى متناول يدك ٠

وقتها كنت عاجزا عن أن أقول لجارى الذى كاد يسحق قدمى هو يحاول أن يريح قدمه أية كلمة ٠

كانت آلام قدمى قد أصبحت جزءا من ذلك الألم الشامل الذى بدأ حزنى يتحول اليه . أجل فحين تتراكم الأحزان ، حين تجىء من هنا ومن هناك بأسرع مما تستطيع أن تراها أو تفكر فيها واحدة واحدة .. فانها تصبح ألما .. ألما يوشك بدوره أن يصبح جزءا منك ، مألوفا وطبيعيا ، وكأنه لا سبيل هناك للتخلص منه ، وربما لاجدوى ولا ضرورة ، ألما يريد أن يقنعك بنفسه وبوجوده وبطبيعته حتى لا تفكر مجرد تفكير فى ضرورة مقاومته .. ألما تشعر اذا أردت أن تقاومه بأنك سوف تقاوم كل ذرة فى جسدك ونفسك لأنه يتخلل فى لحظات كل جزء منك ويسرى فيه مع الدم والأفكار والمشاعر .

أيامها كنت ـ دون شك ـ أدرك أسباب هذا الحزن الأليم ، لأننى أذكر الآن أن شعورى بالعجز ، كان ضمن أسبابه ما ترسب فى نفسى بعد تفكيرى فى بواعث هذا الحزن وأسبابه من أنه لاقدرة لى على تغيير هذه الأسباب ، كنت أفكر فى هذه الأسباب بعقل فتى فى السادسة عشر من عمره فأجدها هناك ، قائمة فى رسوخ صلبة لاقبل لمثلى بزحزحتها قيد شعرة ، وربما لو تذكرت الآن هذه الأسباب لبدت لى سخيفة ومضحكة وعارضة مثل سحب ذلك اليوم ، ولعلها كانت كذلك بالفعل فقد كنت تلميذا ينفق عليه أبواه ، ولم يكن ثمة ما يهدد وجودى ، وكنت أحمل معى سلالا مليئة بما يكفينى من الطعام لأسبوع على الأقل ، وفى جيبى بعض النقود وكل هذه الأشياء لا يدرك تلميذ فى السادسة عشر من عمره معناها الحقيقى الا بعد عشرة أعوام على الأقل .

على أن هذا كله لا يغير شيئا من طبيعة المسألة ، فلو أننى الآن أواجه أحزانا تستند الى أسباب أقوى وأعمق وأصلب لما تغير احساسى بها عن احساسى بذلك الحزن القديم الذى بدأ شعورى به يتزايد ويعمق حين بدأت العربة فى التحرك فوق الطريق

الزراعى المتعرج بجوار ترعة راكدة المياه ، بدت لى وكأنها لم تحفر الا لكى يدفن فى مياهها من يجرؤون على السفر فى يوم شتائى كهذا اليوم ٠

كلمات الركاب التى لا أذكرها تصبح مجرد أصوات لا تعبر عن شىء وروائحهم تكاد تخنقنى ، ولكنى أدرك أن اختناقى الحقيقى يأتى من هناك ، من داخل ثيابى وجلدى ، من دواعى حزنى الأليم الذى ينمو فى داخلى وكأنه يطمح أن يصبح معادلا لى ٠٠ معادلا الى الحد الذى يصبح فيه وجود أحدنا ضروريا لوجود الآخر أو لنفيه ٠

آنذاك بدأت أشعر بالخوف ٠٠ الحزن الأليم الشامل يصبح خوفا ٠٠ أجل خوفا من الموت ومن الحياة ٠٠

لو استمر هذا الحزن الأليم فى نموه الضارى فسوف أهلك هلاكا حقيقيا حدث ذلك مع تحرك العربة ، وكأنها تحملنى الى الموت ، ليس من الضرورى أن تهز ركود المياه فى الترعة المجاورة بما تحمل من ركاب ، أو أن تصطدم بجذع شجرة ، يكفى أن تواصل السير وأن تواصل أحزانى وآلامى ومخاوفى وجودها القاتل ، ونموها الغريب الضارى حتى أهلك ٠٠ وقد يظن الركاب أننى مت اختناقا دون أن أرسل صيحة استغاثة واحدة ، ولكن هذا سوف يكون خطأ شنيعا لا يماثله الا شناعة موتى ٠

قبل هذه اللحظة لم أكن قد فكرت فى الموت على هذا النحو ، ولكنى الآن أواجهه ، أغذ اليه السير فى عربة مدثرة بالرجال ، وبعجز كامل حتى عن أن أرسل صيحة استغاثة واحدة ٠

ماذا يكون الموت ؟ انه النهاية بكل ما تحمل من معنى ٠

تتزايد الأحزان والآلام والمخاوف حتى تصل الى ذروتها ٠

الى نهايتها .. تصل الى تلك القمة عبر وجودى .. وهناك فى لحظة مجيدة حقا تلتقى النهايات كلها ..

وقتها فقط تمنيت لو تقف العربة .. فى هذه الأمنية الطفلية لاح لى أمل خرافى فى النجاة ، والعربة لا تتوقف عن المسير والزفير .. وحتى حين توقفت بعد قليل لم يكن ذلك بسبب شىء مما فكرت فيه من قبل .. لم تسقط فى التعة المجاورة ، ولم تحطم جذع شجرة ، كان المطر قد بدأ يهطل فى غزارة هذه المرة ، وكان لابد أن تتوقف العربة ،وأن تتحول بعض الوقت الى مجرد مأوى للركاب ، حتى يكف المطر وكان لابد لمن ركبوا خارج العربة أن يجدوا مكانا بداخلها يحتمون به من المطر ، وبدأت العربة تكشف عن امكانياتها العجيبة فى احتواء الناس ، كما بدأ الناس يكشفون عن امكانياتهم الأعظم فى التلاحم والاقتراب والالتواء ، قبل هذه اللحظة لم أكن أدرك أن فى العربة أطفالا ونساء وعجائز وأن بجوارى فتاة ريفية يختفى جمال وجهها فى طرحتها السوداء التى أزاحها الزحام ، أصواتهم هى التى كشفت لى وجودهم ، اللغة – مرة أخرى – مجرد أصوات ولكنها هذه المرة تعبر فى لحظة واحدة مزدحمة عن الألم والفرح والبكاء والخوف والضيق والمرح ، وكان التقاء هذه العواطف كلها فى ذات اللحظة يبدو كأنه التعبير الحى عن التقاء هذه الكتلة من الأجساد والأذرع والأيدى والأرجل،عبثا أحاول الآن أن أتذكر كلمة أو فكرة أو شيئا أستخلصه من قلب تلك الكتلة البشرية التى كانت تنبض وتتحرك فى جوف من الحديد البارد الساخن الذى يحترق ويغتسل فى قطرات المطر .

ولكن ما أذكره الآن فى وضوح لا يزال يسطع عبر عشرين شتاء هو أننى بدأت أكتشف جسدى فى ذات اللحظة التى كنت أفقده فيها .. أفقد سيطرتى عليه .. ذراعى وقدمى وصدرى ورأسى وأنفاسى تختلط بغيرها من الأذرع والأقدام والصدور

والأنفاس ، ارادة هذه الكتلة التى لا يعرف أحد مصدرها ولا غاياتها هى التى تجمع وتفرق ، عجزى يختلط بعجز الناس ، وصمتى بأصواتهم ، وحزنى الأليم الخائف يصطدم بمسرى عواطفهم صدمة شديدة فيهتز ويختلج ويوشك مثل جسدى أن يفقد صلابته وتماسكه • وفى كل لحظة أحاول فيها أن أقاوم سيطرة الكتلة أو أسترد جزءا من جسدى وحزنى أجده قد اشتبك بجزء آخر لطفل أو رجل أو امرأة •• بألمه أو مرحه أو خوفه •

ارادة هذه الكتلة التى لا أعرف مصدرها ولا غاياتها هى التى تتصدى هذه المرة لارادتى فى أن أجمع شتات جسدى وحزنى •

الضحكات تختلط بالأنات ، والشكوى بالرجاء ، والصراخ بالمرح ، والسيقان بالأذرع ، والسماء بالأرض عبر قطرات المطر •

من خلال زجاج العربة كان اللون الأزرق الحقيقى يتدفق من السماء ، يتدفق خلال السحب التى بدأت تفقد تماسكها هى الأخرى ، وتنحل الى قطرات تختلط بتراب الأرض ، وأوراق الشجر ، وأسقف البيوت البعيدة ، وأجنحة الطيور اللائذة بالأعشاش •

فجأة توقف المطر ، وبدت زرقة السماء كأصفى ما تكون الزرقة.فتوقفت العربة ، وتمددت الكتلة البشرية داخلها ، فانفتحت أبوابها ، لتتدثر من جديد بالرجال قبل أن تعاود المسير والزفير •

كان ذلك آخر انجاز لارادة تلك الكتلة البشرية التى فقدت ارادتها فجأة ••

وكانت تلك رحلة أخرى فى طريق آخر •• أكثر وعورة وخطورة ••

الظلال التى تقترب هذه المرة هى ظلال الليل لا ظلال الغيوم ، والمدينة التى نقصدها لا تزال أبعد من أن نبصر أنوارها ، ودواعى حزنى الأليم الخائف لاتزال هناك قبل الظلام وبعده لم تبرح مكانها فى قلب الزمان ..

ولكننى هذه المرة كنت أرقبها فى فضول ودهشة .. أجل فى فضول ودهشة ، هذا ما أعنيه تماما ، وما أذكره فى وضوح رغم أن كل شىء آخر راح يختفى فى ظلال الغروب .

كنت لا أزال قابعا فى مكانى من العربة ، ورغم أن كل شىء فى خارج العربة كان يزداد سوءا الا أننى كنت أتلمس وجودى كأغرب شىء قدر لى أن أراه فى ذلك المساء من ذلك الشتاء البعيد .

(كنت عائدا لتوى من تلك اللحظة التى يبلغ فيها كل شىء غايته فيتحطم أو يولد من جديد) .

كنت أتحسس ذراعى وصدرى وساقى ، وأجتذب أنفاسى بعمق ، وأجد عينى فيما ألمح فى قلب الظلام ، وأذنى فيما أسمع من أصوات الليل ، وأشعر أن صلابة وجودى لا تقل شعرة عن صلابة دواعى حزنى الأليم الخائف .

وجودى يناظر وجود الأحزان والظلمات والمخاوف فى صلافة لم أعرف لها نظيرا فى غير ذلك المساء من ذلك الشتاء القديم .

لم أكن أفهم ما حدث تماما ، ومازالت لا أفهمه ، ولكنه كان حقيقيا ، كما لم تكن أشياء كثيرة مما أظن أننى أفهم كيف ولماذا حدثت .

ولفنى رعب مرح مستبد ، انه أنا ذلك الوجود القوى الذى لم يكن بمقدورى أن أبلغ مداه الا من خلال لحظة يبلغ فيها كل شىء غايته .

وضحكت هذه المرة ضحكة لم تجد أصداءها فى العربة ، ضحكة شخص يكتشف خديعته فيخاف ويسعد فى نفس الوقت لأنه الخادع والمخدوع ، القوى والضعيف ، اللغز والحل !!

وحزنت ليلتها قليلا لأن العربة لم تجب على ضحكتى بغير الوجوم والصمت ، وهى تواصل المسير والزفير بحثا عن خفقة ضوء فى قلب الظلام ٠

البداية :

منذ شهور وسماء بلدتنا يغشاها ذلك الظلام المنذر بالمخاوف والأحزان والأمطار ٠

ونفسى ينتابها ذلك الحزن الشتائى المقبض المترب ، المكظوم اللاهث فأشعر بالعجز عن أن أمسك بالسماء وهى متناول يدى ٠

منذ شهور وأنا أفتش فى الزمان والمكان عن ذلك الصبى الذى كان يقبع فى عربة رمادية تشق طريقها وسط الظلمات والأوحال ٠٠

منذ شهور ، وعلى كل الطرقات أبحث عن تلك العربة التى يجد فيها المرء نفسه حين يبدأ يفقدها ٠٠

قد تظن مثل الكثيرين أن هذا كله جزء من ضعفى حيال الشتاء ولكن ثقتى التى لا تهتز بذلك الصبى تجعلنى أومن بأنه لم يبدأ رحلته فى ذلك الشتاء البعيد الا لكى يخف لنجدتى فى الليالى المظلمة ٠٠

النهاية :

لم تحدث بعد ٠٠ !

اغسطس ١٩٧٠

السائل والمسئول

« الثرثرة »

كانوا قد فرغوا لتوهم من التهام الدجاجة التى حملها العريف « أحمد » معه من البلد ، ومسح الرقيب « عوض » يديه فى جزء من الصحيفة التى كانت لبعض الوقت مائدة للوليمة التى تتكرر مع عودة أحدهم من أجازته القصيرة لأهله ٠

قال بعد أن كور الورقة وقذف بها جانبا :

ـ انتهت نوبة الهجوم !

قال محمود وهو جندى مؤهلات لم يحصل بعد على أية رتبة ولكن مرحه يجعله فوق جميع الرتب ٠

ـ لا ٠٠٠ انها تبدأ الآن فقط !

ثم أمسك بما تبقى فى يده من فخذ الدجاجة ، وزوى ما بين حاجبيه ، ليصيب به حجرا قريبا منه !

سرت العدوى الى الجماعة فتحول ما تبقى من عظام الدجاجة

ومن الصحيفة الى مقذوفات أصابت أهـدافا وهمية أو محققـة فى مختلف الجهات ٠

اعتدل بكر وهو أزهرى مجند وأنشأ يتلو بصوت يمثل الوقار « فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا » صدق الله العظيم ٠

قال محمود : لن تعود هـذه الدجاجة ولو أصـدر لها قائد الكتيبة أوامره ٠

قال العريف أحمد الذى يحمل لقب فيلسوف الجماعة ربما لأنه تخرج فى قسم الفلسفة ، وربما لأن كلماته القليلة التى تتخلل صمته الطويل تكون دائما مثار المناقشات ٠

ـ انتهى عصر المعجزات !!

رد الرقيب « عوض » وهو مهندس مجند فى نفس الدفعـة يصنع دائما الهجوم المضاد فى مناقشاته مع أحمد :

ـ المعجزات لا تنتهى ، لكن لكل عصر معجزاته !!

تدخل الشيخ بـكر :

ـ المعجزة أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مدعى النبوة ٠

عاد الرقيب « عوض » يؤكد :

فى عصرنا تبقى المعجزة ولـكن معناها هو الذى يتغير لم تعد أمرا خارقا للعادة ، انها أمر ممكن لكن معجزة العصر الحديث أن نعرف حدود الممكن !!

قال محمود ضاحكا :

ـ الممكن الذى يشبه المستحيل هو أن يعود لنا الشيخ بكر بدجاجة مماثلة من بلدهم !

وزأر الشيخ بكر :

ـ يا أوغاد تأكلون وتنكرون كالقطط !

نسيتم الأرنب الذى تسممتم به منذ شهرين ، وماذا أفعل اذا كنت لم أحصل على أجازة منذ شهرين ؟

ثم التفت الى العريف أحمد وسأله بنبرة مشبعة بالحنين :

ـ كيف حال البلد ؟ اشتقت لمنظر الناس ، كل النـاس فى كل البـلاد ؟

ورغم حرارة السؤال ، ونبرة الشيخ بكر ، فلم يتعجل العريف أحمد بالجواب ٠

كان يتأمل الانطباعة المريرة التى حملهـا السؤال الى وجوه الجماعة الصغيرة ، وكان يتأمل فى نفس الوقت ما يمكن أن يكون ظاهرة تتكرر كلما عاد أحدهم من بلده فى أجازته القصيرة ، دائما يتسلل سؤال كهذا ، قد تختلف الصيغة أو الأسباب ، ولكن يتسلل ليثير نوبة أخرى ، وهجوما آخر ، ويفجر نوعا من المرارة يجدون له فى حلوقهم طعما واحدا !!

هل بدأوا مثله يكتشـفون تلك الظاهرة ؟ هـل بدأوا مثله يدركون تلك الدورة الغريبة ؟ ويلاحظون أن ما يحدث هنـا هو الوجه الآخر لما يحدث هناك ؟ فى بلده أو فى بلد أى رفيق آخر ؟

ـ بخير ٠٠ الناس كلهم بخير ، ويسلمون عليكم ٠٠

هكذا قطع فكره وصـمتهم ، بهذا الجواب كأنما ليستمهلهم

بعض الوقت ، لم يفكر فى الفراغ الذى تنطوى عليه اجابته ، فكر فقط فى أنه هناك فى بلده كان يرد عليهم تقريبا بنفس الجواب حين سأله أحدهم نفس السؤال :

ـ قل لنا ٠٠ كيف الحال عندكم ؟ حال الجيش ؟

وكان ذلك أيضا بعد أن انتهى العشاء الفـاخر ، هناك كانت توجد وليمة حقيقية لاشبه وليمة كما كان هنا !!

وهناك كانت أيضا فى البدء عواطف حارة ، ومرح ، وأسئلة كثيرة من كل الناس حول أى شىء وحول لاشىء ، ثم فى النهاية ، نهاية الأطعمة والأشربة والعواطف ، يبدأ السؤال الحائر ، يبدأ معلنا هناك كما يعلن هنا أن نوبة تنتهى وأخرى تبدأ ٠

وهناك أيضا يكتشفون فراغ اجابته فيعيدون السؤال ٠٠ فى صيغة أخرى ٠٠ ولكن جميع الصيغ تحمل معنى يمكن ببساطة أن يترجم الى هذا الرجاء ٠

ـ قل لنا شيئا رأيته بعينيك فكأننا نراه بعيوننا ٠

وهناك يتطلع الى جميع العيون التى تحدق به ، فى أغوارها ينبض شىء واحد ، شىء واحد فى كل العيون توق لاحـد له لمعرفة الحقيقة ، خوف لاحد له أن يكون ثمة مالا يعرفونه ٠ شك لا يطيقونه ولا يقدرون على زحزحته ، وبالنسبة له لا تكون المشكلة أن يجـد الشجاعة ليقول لهم الحقيقة بل المشكلة أن يملك القدرة على معرفة كل ما يسألون عنه ؟ يتحدث اليهم عن تجربته الصغيرة ـ هذا على الأقل ما يملكه ـ ما يراه ، ما يقوم به ٠

هناك يصبح ابنا للجيش ، مندوبا عنه ، متحدثـا باسمه ، لهؤلاء الذين لا يريدون أن يأخذوا كل شىء سهلا ومصدقا ، المرتابين فى قلق ، الآملين فى لهفة ، المحبين له رغم كل شىء ، والغريب أنه

هناك ينسى كل ما يضايقه هنا ·· ينسى متاعبه ومشاكله وشكاواه ، يصبح انتماؤه للجيش هو كل شيء ولكنه هنا ،الآن ·· وغبار الطريق لا يزال فوق ثيابه العسكرية ، والدجاجة التى جاء بها لم تهضم بعد ، وأمام تلك الانطباعة المريرة التى تزداد احكاما فوق جباه الجماعة الصغيرة ، وأمام الأسئلة التى بدأت تنوشه من كل جانب ·

ـ بخير ؟ أهذا كل ما هناك ؟ ألم يتفضلوا بسؤالك عن أحوالنا ؟

ويتطوع بعضهم بالجواب : طبعا لم يصدقوك ، طبعا ·· أمام هذا كله ، بدأ يحس انتماءه للبلد ، بدأ يفكر فى كسر تلك الدائرة الجهنمية التى تستدرجهم فى كل مرة الى مواقف لا معنى لها ·· الى مشاعر ليس أفضل من مناقشتها فى وضوح ومهما تكن قاسية ، الى مواجهة جديدة لا ينبغى أن يخافها أولئك المدعون لمواجهة الموت ذاته ·

قال فى حدة :

وماذا فى ذلك ؟ شيء طبيعى أن يسألوا ·

ـ وشيء طبيعى كذلك ألا يصدقوا شيئا مما تقول !!!

قالها محمود بسخرية ·

لم يغضب أحمد ، تذكر أنه كان يشارك الجماعة ضيقها من هذه الشكوك ، ولكن ذلك نصف القضية ، قال فى هدوء مزمعا تفجير كل شيء ·

ـ المسألة أنهم يبحثون عن شيء يصدقونه ، ويثقون به ·
ثم أكمل بعد لحظة صمت ، شعر خلالها أن ولاءه للناس

وللجيش يلتحمان معا ليصنعا ولاء أكبر للحقيقة ، لمحاولة معرفتها .

أكمل العريف أحمد بلهجة جاهد أن تجيء هادئة :

لقد حدث فى حياتنا شيء فظيع بعض أسبابه أن الناس كانوا يصدقون كل ما يقال لهم ، انهم كفوا عن توجيه الأسئلة ، انهم نسوا عادة الحذر .. ومن الطبيعى جدا .. وقاطعه محمود باندفاعه لا أثر فيها لمرحه المألوف :

ـ هل من الطبيعى جدا أن نكون هنا فى حالة حرب حقيقية نواجه الموت ليلا ونهارا . ونواجه متاعب أنت أدرى بها ، والناس الذين نتحدث عنهم يعيشون حياتهم الطبيعية هناك ؟ أنت قادم من هناك ، فأى شيء تغير فى حياة الناس ؟ المقاهى والملاهى ودور السينما ، والمشاكل اليومية الصغيرة كل شيء كما هو ، الى أن يلتقوا بأحد الجنود العائدين من الجبهة وآنذاك لا يريدون أن يقنعوا بأقل من حدوث معجزة ، ولا يطيقون عدا الكمال ، وفى النهاية لايتفضلون عليك بأقل من شكوكم ، ولماذا لا يجيئون الى هنا ليروا كل شيء بعيونهم ؟؟

ولم يغضب « أحمد » ولم تروعه نظرة التأييد الكامل لمحمود التى أطلت عليه من جميع العيون ، كان غضبهم بعض غضبه ، ولكن :

ـ المسألة ليست هكذا أبدا ، ولا يمكن أن تكون كذلك .

قالها بنفس النبرة التى يجاهد لكى تجيء هادئة .

وكأنما مستهم العدوى قالوا جميعا وفى نفس واحد وبهدوء :

ـ ما هى المسألة اذن ؟

دوت طلقة مدفع من الجانب الشرقى للقناة ، صمتوا ، جاوبه مدفع من الجانب الغربى ، واصلوا الصمت ·· قد يبدأ حوار من نوع آخر ، تجمعوا فى ملجأ صغير ، لا دور لهم الآن فى مثل هذا الاشتباك ، فهم جماعة استطلاع فرغت من تدريبها وفى انتظار أن يقوموا بمهمتهم فى سيناء ·

توقف التراشق بعد لحظات ، لمح خلالها أحمد وجه « هالة » الناعم المستدير الذى تغرق فيه عينان خضراوان تهرعان اليه دائما فى لحظات الخطر ، لم يبق هناك ما يربطه بهاتين العينين ، لعلهما تتطلعان الآن الى المارة من خلال زجاج العربة « البويك » التى تمتلكها ، وهى فى طريقها الى المصيف ، ومع صمت المدافع هربت العينان الخضراوان وعادت الجماعة الصغيرة التى ازدادت قربا ، ودون أن تغادر الملجأ ، عادت تسأل سؤالها الجماعى :

ـ ما هى المسألة اذن ؟

قال أحمد محاولا أن يتذكر هدوءه :

لا أملك تبسيط المسائل فى كلمات قليلة ، ولكنى أعتقد أن من حق الناس أن يسألوا ومن حقكم أن تطالبوهم بما هو أكثر من مجرد السؤال ·

قال الرقيب « عوض » الذى ظل صامتا طول الوقت معلنا بدء الهجوم المضاد :

ـ حقوق ·· هذا ما يملك الفلاسفة مثلك تقريره فى كل العصور ، أن يهبوا الناس حقوقا على الورق أو فى الهواء ، دعنى أقول لك كلمة حق واحدة أملك الشجاعة لقولها ، نحن جميعا نريد أن نحارب وننتصر ، ولكننى واثق من أن تحقيق هذه الارادة يحتاج الى أن تكون الثقة فينا كاملة ، أتسمعون جميعا ، ثقة كاملة بدونها لا تتكلمون عن النصر ·

قال أحمد :

ـ ليس هناك أردأ من هذه الكلمة ، ثقة كاملة ؟ كانت مثل هذه الثقة موجودة من قبل أما الآن فينبغى أن تنمو الثقة من الأسئلة والأجوبة ، من قلب الحذر وتبقى بعد ذلك ثقة غير كاملة .. نعم لا أريدها كاملة .

صرخ عوض :

ـ ثقة وحذر ، معادلة صعبة جديدة ، ما أبرعكم فى صياغة الكلمات ، نحن يا صديقى فى حالة حرب ، هل نسيت ؟؟ فى الحرب ليس يجدى أقل من الثقة الكاملة ، ان وجود شخص مثلك يفسد كتيبة بأكملها ، ثم أضاف ضاحكا : ولو كنت مسئولا لأمرت بطردك خارج الجيش ؟

تدخل الشيخ بكر وقد وجد أخيرا فرصته :

ـ كيف تتحدثون عن الثقة الكاملة دون أن تتحدثوا عن الايمان الكامل ، المهم قضية الايمان ؟

قال عوض :

ـ الايمان كامن فى أعماق شعبنا ويكمن بينه ، المشكلة أن يتحدث الفيلسوف أحمد عن الحذر فى شعب ثلاثة أرباعه لايعرفون القراءة ؟

قال أحمد دون أن يفقد هدوءه :

ـ لماذا تسخرون من المعادلات الصعبة ؟ والحياة كلها معادلة صعبة ، يحدث الموت حين يعجز الجسد عن تحقيق التوازن فى داخله ، حين يفشل فى تحقيق معادلته الصعبة الخاصة به .

دوت طلقة مدفع من الجانب الشرقى للقناة ، أعقبتها على الفور طلقات متتابعة من الجانب الغربى ، وصمتوا من جديد ، تقاربوا فى الملجأ الصغير ، تحول التراشق الى اشتباك عنيف لم

يمنعه من أن يسأل نفسه : أحقا أن كل ما يملكه هو الحديث عن حقوق فى الهواء ؟ عن أشياء لا تتحقق ولا يمكن أن تتحقق ؟

مرة قالت له « هالة » : أنت يا حبيبى تجيد الحديث عن أشياء لا وجود لها فى عالم الناس • ثم تخلت عنه بعد وقت غير طويل ، ولكن عينيها الخضراوين تهرعان اليه دائما فى أوقات الخطر ، كانتظار لا يمل لمعجزة لا تتحقق •

« الاستطلاع »

أصبح أحمد وحيدا ، تفرقت الجماعة الصغيرة بعد أن نجحت فى عبور القناة ، كل يعرف دوره فى مهمة الليلة ، وحين يؤديه يكون ثمة لقاء فى نقطة معروفة للجميع ، يتبادلون فيها المعلومات التى حصلوا عليها ، ثم يتفرقون من جديد ليعودوا فرادى ، وحتى لا تضيع المعلومات الغالية لو سقط أحدهم فى طريق العودة ، وفى مكان آخر على شاطىء القناة يكون لقاء أخير يعبرون بعده القناة الى مواقعهم !!!

مرة قالت له « هالة » : التجربة العملية تختلف كثيرا عن الكتب التى توشك أن تفسد حياتك •

يومها قال لها : وما رأيك فى الكتب التى تستوحى تجارب الواقع ؟

فى كل مرة يواجه فيها الخطر تجىء « هالة » تقتحم الصعاب ، وتبقى بمنأى عنها ، أهى حقا تجىء أم هو الذى يدعوها لتراه ، لترى أنه ليس كما كانت تتوهم ؟ ربما لا يريد أن يقنع « هالة » بقدر ما يريد أن يقنع نفسه بأنه ليس كما تزعم •

حين يصبح المرء وحيدا فى مهمة كهذه فقد تكون تلك فرصته الوحيدة ليعرف الكثير عن نفسه ، عن حقيقة نفسه ، لكن مهمته الليلة أن يعرف بعض المعلومات عن تجمعات للعدو عند نقطة وصفت له بدقة هائلة ، نقطة تختفى فى قلب هذا الظلام الذى يخفيه عن عدوه ، ويخفى فى نفس الوقت عدوه عنه ٠

ها هو أخيرا يخرج ليبحث عن الحقيقة ، حقيقة صغيرة جدا هذه المرة ، أصغر من كل الحقائق التى كان الناس الكبار يبحثون عنها فى ظلمات المجهول ٠

أى شىء يربط الحقائق صغرت أم كبرت بالظلام ؟ تختفى فى ظلام المجهول ، ويخفيها الناس فى ظلمات الليالى والنفوس ويبحث عنها الباحثون فى الليالى المظلمة ؟

لم تكن « هالة » دائما على صواب ، فها هو يتسلل فى قلب الظلام والخطر دون أن يسحقه الخوف ، وعقله يعمل فى كل اتجاه دون تردد ، يترجم أصوات الليل ، ودرجات الضوء ، وصلابة الأرض تحت قدميه ، وروائح الصحراء ، ولا يريد أن ينسى موقفا قديما كان يعتقد أنه لم يعد له أثر فى حياته ، صحيح أن هذا كله يؤكد أن كلامها عن التجربة العملية كان صوابا فى جملته ، ولكن هذا التأكيد يجىء لصالحه هذه المرة ٠

من بعيد تنطلق رصاصة لتمزق السكون فوق رسه ، وحين ينبطح على الأرض يجد الى جواره حجرا ضخما لعله ملقى فى مكانه منذ آلاف السنين فيتكور بجواره بعض الوقت ، اتجاه الرصاصة لا يدعوه لأن يغير اتجاهه ، الظلام يشف مع الوقت ويفصح عن غوامض المكان ٠٠ لكنه يتمزق فجأة تحت ضربات المصابيح الكشافة التى تومض وتختفى فى أماكن متعددة وفى حركة تبادلية ، تصنع مصايد من الضوء للمتسللين ، مصايد تمتد باتساع الصحراء ،

وتتحرك بسرعة الضوء ، ويصبح وجود حجر ضخم ملقى منذ آلاف السنين ، حجر ينقذه من مصيدة الأضواء الكاشفة يصبح وجوده معجزة تحدث فجأة له ، هو الذى لا يؤمن بالمعجزات ٠

كم معجزة يحتاجها الليلة لينجح فى مهمته ؟ ولكنه لا يشك فى أن أهم معجزة حدثت فى حياته كانت قراره بأن يكون جنديا فى فرقة استطلاع ، هذا النوع الأخير من المعجزات هو ما يؤمن به ٠

قال لهم ضاحكا : على فلاسفة هذا العصر من أمثاله أن يتدربوا على البحث عن معدات العدو وأعداده قبل أن يبحثوا عن حقائق الكون ٠

لن يرقد طويلا بجوار هذا الحجر فالأضواء الكاشفة بدورها لا تريد أن تكشف نفسها دائما ، ولن ينتظر معجزات الأحجار فهى كالظلام تصلح ساترا له وللعدو ، وقد يلتقى خلف احداها بكمين للعدو وآنذاك يصبح الصراع بدا ليد ، مفروض أن يتجنب المعارك ولكن حين تفرض عليه ، فالحوار بالخنجر هو الحوار الوحيد الممكن مع العدو ، وقبل أن يتخذوا منه أداة استطلاع لصالحهم فلابد أن يقتل عدوه أو يقتل نفسه حين لا يكون هناك مفر ٠

هذا هو الثمن ، أقل ثمن من أجل أن يعرف الجيش بعض المعلومات عن تجمعات العدو ومعداته ٠

الناس هناك فى بلده يسألون أنفسهم أو غيرهم وهم يحتسون القهوة عن الحقيقة ، وكأن الحقيقة ، حقيقة العدو أو حقيقة أى شىء سوف تجىء كالضيوف ، وتطرق عليهم الأبواب ليتفضلوا باستقبالها ٠

الطرق والمدقات المألوفة ترصدها الكمائن ، وتتوزع فيها حقول الألغام ، وطريقه الوحيد الآمن بعض الشىء هو الذى يمضى

عبر الهضاب والتلال والأحجار ، قلبه يدق من التعجب أو الخوف ، من يعرف الفرق ؟ وهواء الصحراء الجاف يجفف عرقه ، وثيابه تلتصق بجسده وتزداد مع الوقت ثقلا ، وتزداد الرمال نعومة والأحجار صلابة ٠

وأشرطة الضوء التى لا يعرف متى تفاجئه تدفعه الى قلب الرمال فى سهل يخلو من الأحجار ، ويتحرك زحفا حين يزحف شريط الضوء الى مكان آخر ، من المهم ألا يأخذ وقتا أقل أو أكثر ، كل شىء معمول حسابه عدا تلك الرصاصات التى تأتى من المجهول وتذهب اليه ، تمسح وجه السهول والهضاب وتحرمه أحيانا ميزة السير على قدميه ، وعدا الدوريات التى قد تكون على قيد خطوات منه دون أن يدرى ، أنفه وأذنه يتسللان أمامه ، يتعرفان الروائح والأصوات ، ويفسحان له الطريق ، ولكنهما يرتدان فى ذعر حين تنطلق هذه المرة رصاصة ، قريبة المصدر والهدف ٠

الرمال تندفع الى فمه وأنفه وأذنه ، لحظة الصدمة تختفى بنفس السرعة التى جاءت بها ، ليتذكر ٠٠ لتتذكر خلايا جسده أن صوت الطلقة رغم قوته فهو يجىء من بعد يسمح له بالتحرك السريع نحو تل يلوح له من قرب ٠

ويندفع بسرعة خاطفة ليرتمى الى جانب التل الرملى ٠٠ لا يجب أن يموت مجانا فى ليلة كهذه ، ليست مهمته الليلة أن يبحث عن الموت بأى ثمن ، انه يبحث عن المعلومات الغالية ، واذا كان يحرص على حياته فذلك بعض حرصه على أن يحقق الهدف الذى خرج من أجله الرجال فى تلك الليلة ٠

النقطة التى يبحث عنها فى الظلام تقع غير بعيد من التل الذى يختفى فيه ، تقع فى مكان لا يصلح للاختفاء ، ولهذا اختاروه له ، الآن العدو من ناحية لن يهتم بمراقبته جيدا لأن الأضواء الكاشفة

لا يمكن أن تتجه اليه دون أن تكشف فى نفس الوقت تجمعات العدو وتحركاته ، ونقطة القوة فى المكان هى نقطة الضعف والمصادفة لا حساب لها فى مهمة كهذه ، المهم ألا يخاف ، ألا يضطرب ، أن يصبح كقطعة الأرض التى يرقد فوقها ، أن يغوص بجسده فى الرمال الناعمة ، أن يواجه الخطر دون تردد ، ذلك أمنه الوحيد وضمانه الوحيد كذلك ، أنفه وأذنه يعاودان التسلل وراء الأصوات والروائح ، ولكنهما هذه المرة يعودان بأصوات مبهمة للغة العدو ، لم يكن ما يسمعه هذه المرة هو صوت مخاوفه .. تلك أصوات حقيقية تزداد قربا ووضوحا وتشى بأعداد من الرجال لا يمكن التأكد من حقيقتها ، ويتأكد من أنه أمام دورية للعدو تسير فى محاذاة الجانب الآخر من التل ، من الصعب أن يخمن خط سيرها دون أن يقف أو يتحرك ، وقد يتيح لها بذلك فرصة اكتشافه ، لو دارت حول التل لما كان هناك شك فى الصدام بينهما ، بمقدوره مادام قد سبق الى الاحساس بوجودها أن يسبق بالهجوم ، وأن ينسف الدورية بأكملها بقنبلة يدوية ، ولكن ماذا ستكون النتيجة فى مثل هذا المكان القريب من تجمعات العدو ؟ نجدات تتلاحق ، ويصبح موته بأيديهم أو بيده مؤكدا .

لن يقدم على هذه المخاطرة الا فى آخر لحظة ، فى الثانية التى يتأكد فيها من أنهم سيرونه ..

الدورية تدور حول التل ، أشباحهم تظهر فى وضوح ، يكاد يسمع تردد أنفاسهم ، وتشتد قبضته على القنبلة اليدوية ، ينزع فى هدوء مسمار الأمان ، يمد ذراعه الى الوراء ، فقد يواصلون السير جانبا ، وقد يواصلون الدوران ، لو تلفت واحد منهم ربما شعر بوجوده ، قلبه يصرخ فى صدره ، واصلوا السير جانبا ، أصبحت ظهورهم اليه ، بمقدوره أن يبيدهم الآن لكن موته سيكون مؤكدا كذلك ، واحد مقابل خمسة من الرجال هل يخاف

على نفسه أو على مهمته ؟ من يدرى ؟ عينا « هالة » تعودان ، تتطلعان اليه ، تنفذان الى أعماقه ، تحاكمانه دون كلمة « هل رأت هاتان العينان صورة الموت التى رآها ؟ لا يستطيع الليل أن يخفى صورة الموت ، وحين ترى الموت حقيقة وبعينيك فأنت أيضا ترى الحياة ، كل الحياة فى نفس اللحظة كل خلاياك تحيا ، الكون كله ينفذ خلالها فى لحظة كالبرق ، الزمن كله يختصر فى تلك اللحظة كل الألوان والطعوم والروائح والعواطف والأفكار والصور .. كل ذلك فى لحظة خاطفة ، ولا يدرى أكان ينقذ حقا مهمته أم كان يسعى لانقاذ الكون الذى هرب اليه واختفى فى جسده ، وكأنه سينتهى بنهايته .

عليه الآن أن يواصل التسلل الى النقطة التى تقع غير بعيد من التل ليستطلع المعلومات عن العدو ، ولكن من يستطلع الحقيقة وراء هذا الموقف ؟

أى شىء رأته عينا هالة الخضراوان كالوادى الأخضر ؟

ماذا يكون الجنون بعينه اذا لم يكن ما يفكر فيه الآن ؟

ما الذى يبقيه فى مكانه مادامت الدورية قد مضت ؟

ألا يزال خائفا ؟ أى سؤال لعين لا ينفك يطارده ؟

ومتى لم يكن خائفا ؟ المسألة ألا يغادر موقعه قبل أن يتعرف طبيعة الموقف الذى يتجه اليه ليقوم بمهمته ، لم يعد لديه شك فى دقة اختيار الموقع ، كل شىء من هناك يمكن رصده بسهولة ، لو نجح فى الوصول اليه ، وفى بطء راح ينحدر مع التل حتى استقر فى حفرة صغيرة كاد يعثر بها ، من هنا يمكنه أن يرى جزءا من الحقيقة ، من هنا وليس من أى مكان آخر ، من قلب المخاطر والمخاوف والظلام ، تحتاج العربات التى تعبر الشريط الضيق أمامه

أن تضيء أنوارها للحظات خاطفة لتتجنب الصدام ببعضها ولتتهيأ للدوران فى المنحنى القريب ، فيمكنه أن يعدها بسهولة ، أصوات العربات تنم عن نوعها وحجمها وحمولتها فى نفس الوقت ، وحين يصبح السائل هو المسئول ، تلتقى الثقة بالحذر ، وتوشك المعجزة أن تتحقق ٠

الوقت يمر ، وحركة العدو لا تنتهى ، وليس هناك ما يخافه سوى الخوف نفسه ، هل يبقى ولو تأخر عن الوقت المحدد للقاء رفاقه ، أو يكتفى بما حصل عليه من معلومات ؟

الأوامر التى يحملها صريحة بضرورة العودة فى الوقت المحدد وأوامر عقله صريحة فى ضرورة أن يبقى مادامت أرتال العدو تمر بغير حدود ٠

وحين يقرر العودة فى نهاية الحوار القصير تبرز فجأة عينا « هالة » نسبران أغواره من جديد ٠

فى المكان المحدد ، وتقريبا فى نفس الوقت ، توافد أفراد الجماعة الصغيرة ، وفى صمت تبادلوا المعلومات التى جمعوها ، لم يكن ذلك لقاء للثرثرة ، كان كل شيء محددا وقاطعا ورائعا فى نفس الوقت ، وتفرقوا ، بلا عواطف وهم مثقلون بها ، وأصبح « أحمد » من جديد فى طريق العودة ٠

الأمل أثقل وطأة من اليأس ، ومخاوف النهاية أشد اظلاما من مخاوف البدء والطرق الوعرة هى أسهل الطرق ، وأشرطة الضوء تواصل بحثها المحموم ، والأحجار تحمل الأمن والخوف ، والظلام يخفى القاتل والمقتول ، وطلقات الرصاص التى تجيء من المجهول وتذهب اليه تبدو هذه المرة وكأنها تستهدف اللقاء المعجز بين الثقة والحذر ، وحين يصبح الخطر جزءا من المكان والوقت فأنت لا تحس الخطر مثلما تحس بالمكان وبالوقت ذاتهما ، ومن بعيد لمح أحمد

شيئا يلمع لمعانا خافتا رغم الظـلام ، ويتأكد من أنه يقترب الآن من القناة ، ممن العودة ، لا ·· لا يجب حتى آخر لحظة أن يدع للثقـة أن تغلب الحذر ، على مقربة منه طـريق معبد ، لكنه لا يستجيب لاغراء الطريق لحظة واحدة ، ضوء خافت يلمع فى منتصف الطريق المعبد ، ويجمده الفضول والخوف معا ، ماذا هناك ؟

كمين بمثـل هـذا الوضوح وفى مثل هـذا الموقع ؟ أم عربة معطلة أم سر جديد يمكن أن يعود به فى آخر لحظة ؟؟

لم يكن ذلك جزءا من مهمته ، ولكن مهمته الآن لم تعد فى خطر ، واذا كانت ثمة أخطار فهى ما يمكن أن يحدث له وحـده ؟ القضية القديمة المعلقة تنتظر الحكم والعينان الخضراوان تعودان من جديد ، تسـخران أو ترجوان أو تتحديان لا يدرى ؟ هو وحده القاضى والمتهم والشهود والحادثة ، بمقدوره الآن أن يكتشف أكثر من حقيقة ، وأن يصنع أكثر من حقيقة ، ليس هناك الآن ما يخاف عليه غير حياته ،ولا ما يخاف منه غير نفسه ، ولا ما يرجوه غير أن يكتشف حقيقـة تلك النفس التى سـخرت يوما من مزاعمها فتاة جميلة ذات عينين خضراوين ؟ فلم يعرف ماذا يصدق ؟

هو وحده الذى يملك أن يصدر القرار الأخير ، هو وحـده السائل والمسئول ، ويمضى أحمد هادئا فى اتجاه العربة ·

« الحـلم » :

حين فتح الرقيب « أحمد » عينيه أبصر وجـوه رفاقه تبرز خلال اللون الأبيض الذى يغطى كل شىء فى الحجرة ، حاول أن يمسك بالوجـوه حتى لا تفلت منه من جديد ، قبل لحظات كان يحاول عبثـا أن يتبين وجوههـم فى الزحام ، أكان يحلم قبل ذلك أم أن الحـلم ما يراه الآن ؟ حاول أن يتكلم فلم يجـد صـوته ،

حاول أن يتحرك فشدتـه الأربطة والضمادات قبـل لحظات كان يخطب بأعلى صوته دون أن يسمعه أحد أغمض عينيه فعاد الزحام أشد ما يكون ولكنه هو عاد أخف حركة وأكثر قدرة على التحديق فى الوجوه التى تصخب فى الميادين والشوارع ، كان يقف فوق برج القاهرة والعيون كلها مشدودة اليه فى انتظار خطابه ٠

لم يكن يفهم لماذا ينتظرون منه أن يلقى خطبة أمام الجماهير مع أنه لا يجيد الخطابة ، ولماذا يقف بأعلى البرج مع أنهم قد وضعوا أمامه ميكروفون الاذاعة وعدسات التليفزيون تنقل صوته وصورته الى كل انسان وفى كل مكان ؟

أين وجوه الرفاق وسط هذا الزحام ؟ لو عثر عليهم لأمكنه أن يستوضحهم الأمر ٠٠

فتح عينيه من جديد فلم يبصر سوى وجه واحد تطـل منه عينان خضراوان وسط الحجرة البيضاء ٠

هتف : هالة ؟

أجابت وهى تبتسم : اسمى سعاد ٠

ـ أين الضيوف الذين كانوا هنا ٠

ـ الطبيب أمر بخروجهم حرصا على راحتك ٠

ـ أين هالة ٠

ـ حاول أن تنام ٠٠ ثم شعر بشكة ابرة خفيفة ٠

عاد الزحام ، أشـد من المدة السـابقة ، قال المذيع الذى لم يبصره قبل هذه اللحظة : الجماهير تريد أن تسمع صوتك ٠

وهدرت الجماهير : نريد أن نعرف الحقيقة ٠

قل لنا ماذا حدث هناك ؟ كيف قمت بمغامرتك ؟

هالة وحدها هى التى رأت كل شىء ويمكنها أن ترويه ، لا يذكر ماذا حدث بدقة ؟ أين رفاقه ؟ هم الذين حملوه معهم فى آخر لحظة ؟ ما الذى يريد البلهاء أن يسمعوه ؟ البلهاء لا يزالون ينتظرون من يقدم لهم الحقيقة هدية على طبق من فضة لماذا لا ينتهز الفرصة ليقول لهم رأيه كاملا ، ليسمعه الجميع ٠

ـ نأمل أيها السادة أن نقدم لكم فى برنامج « مع الحقيقة » وجها من ٠٠

وقاطعه أحمد :

أيها الأصدقاء : لا أحد ينوب عن أحد فى اكتشاف الحقيقة ، الحقيقة هى ما تفعله حين تواجه الموت ، والذين يتجنبون هذه المواجهة ليس من حقهم أن يسألوا ٠٠

أصوات الجماهير تسد الأفق ، هل يسمعه أحد ؟

لماذا لا يصمتون لحظة واحدة ، ما يريد أن يقوله لن يستغرق سوى هذه اللحظة !

أحمد يواصل صراخة هذه المرة : « عندما يصبح السائل هو المسئول ، تصبح الثقة هى الوجه الأخر للحذر ، وتسقط كل الأقنعة او تظهر الحقيقة » ٠

لا أحد يريد أن يسمع ، الضجيج يرتفع ويرتفع كأنما ليغطى عليه ، ليفتل صوته !

من المستحيل أن بترك هذه الفرصة ، يجب أن يكف البلهاء عن الصراخ ، انه يواجه هذه المرة خطرا أشد من كل المخاطر السابقة ، لماذا لا يعطونه الفرصة ماداموا جاءوا ليسمعوه ٠

أفراد قلائل هم الذين يصنعون الهتافات والضجيج ويستغلون حماسة الجماهير بدفعهم لترديد الهتافات الصاخبة ٠

وسط العيون الصاخبة تلمع عينان خضراوان ، كانت تلك « هالة » بشحمها ولحمها هذه المرة ، تقود عربتها « البويك » فى الزحام ، وتحاول أن تصل اليه ، كان واضحا أن « هالة» فى خطر شديد ، الجماهير تغطى العربة ، هل تنجح « هالة » فى الوصول اليه ؟

هى وحدها التى تستطيع أن تروى الجزء الناقص من قصته ؟ هل جاء الى هنا ليراها تموت فى الزحام وأمام عينيه ؟

كيف لا يسعى لنجدتها وهى التى لم تفارقه فى لحظات الخطر، الخطر هذه المرة يحدق بها وبه ، يحدق بالحقيقة التى يصر البلهاء على أن يجعلوا منها مجرد مغامرة يتسلون بسماعها ، عليه أن يواصل الصراخ فهناك فى القرى البعيدة وحول أجهزة الراديو فى كل مكان يسمعون صوته دون شك ، أجهزة الراديو تتغلغل فى كل الأنحاء ، لا يجب أن تذهب هذه الفرصة ٠

« أيها الأصدقاء ، الحقيقة هناك ٠٠ وليست هنا ، هناك لا تكتشفون الحقيقة فقط بل تصنعونها كذلك » ٠

هل يسمعه أحد ؟ هل يفهمونه هناك فى القرى النائية ؟

« هالة » تطفو فوق الجماهير ، عربتها « البويك » تتحطم ولكنها ترتفع ، لا يصدق عينيه ، كأنها تريد أن تقول له شيئا ،

تلوح بيدها الى بعيد ، كأنها تدعوه الى أن ينظر حواليه · كأنها ترى ما لا يراه ، ويتلفت أحمد وهو فى أعلى البرج ليبصر أمواجا بشرية هائلة تخرج من قلب الحقول فى اتجاه الشرق ·

« هالة يا عزيزتى ، كنت واثقا أننا سنلتقى رغم كل شىء ، لقد تحطمت عربتك وتحطمت مخاوفى فأى شىء يمنع لقاءنا الآن ؟ » ·

ـ يا أستاذ أحمد قلت لك اسمى سعاد ·· أنت متعب الآن ويجب أن تستريح · وأحس بشكة ابرة خفيفة فنام ·

اغسطس ١٩٦٩

وقت الزوال

« الزوال » ليس مجرد وقت ، وعلاقتى به ليست مجرد علاقة ، وشغفى ليس مجرد عاطفة ! فهو كوقت يصلح بداية ونهاية ، أو يصلح أن يكون النقطة الوهمية التى تفصل بين كل بداية وكل نهاية ، وأحيانا يخيل لى أنه يفسر الأحداث أكثر مما يحتويها ، وذلك حين يسحب عنها كل الظلال التى تتحرك من الغرب الى الشرق !

أما علاقتى به فهى تبدأ منذ وقت بعيد ، وكأى علاقة كان يجب أن تنتهى عند حد معين ، ولكن عاطفتى نحوه ، عاطفتى التى تنطوى على الشغف والتأمل والحنين والخوف والتى بقيت حين انتهت كل الأحداث ، هذه العاطفة هى التى لاتزال تحرم هذه العلاقة من حقها الطبيعى ، فى أن تجد نهاية طبيعية مثل غيرها من العلاقات !!

كنت طفلا حين سمعت مع غيرى من الأطفال كلمة « الزوال »، لأول مرة ، كان « سيدنا » يشرح لنا فى « المكتب » أول درس فى

مواقيت الصلاة ، ومع أن سيدنا كان أعمى ، وثقيل الحركة فقد بدا وكأنه أبصر دهشتنا جميعا حين نطق بوقت صلاة الظهر قائلا : « انه وقت الزوال ٠٠ » ٠

وزاد من حركة جسمه حين راح يوضح لنا ما كنا فى حيرة من أمره « وقت الزوال يا أولاد هو الوقت الذى تتوسط فيه الشمس كبد السماء ، يعنى منتصفها تماما ٠٠ » ٠

وكأنما أبصر سيدنا على وجوهنا ما هو أكثر من الحيرة ، وأبصر علائم الضحك المكتوم فراح يضحكنا أكثر بقوله :

ـ يا عمى القلوب والنواظر ، لا تتعجبوا فمن السهل أن نعرف حين ننظر الى الأرض متى تكون الشمس فى منتصف السماء ٠

وراح يشرح لنا حركة الظل من الغرب الى الشرق كأنه يراه ، وحين تجىء اللحظة التى يصير فيها ظل كل شىء أسفله تماما ، يعنى لا هوفى الشرق ولا هو فى الغرب ، يعنى حين يزول الظل من الشرق والغرب معا ، يدخل وقت صلاة الظهر !!

كانت تلك هى البداية فى علاقتى بوقت الزوال ، وبمعنى من معانى الزمن ، ومنذ تلك الأيام البعيدة ، وهذا الوقت من النهار يشغلنى بغموض لفظه ومعناه ، وبما وقع لى فيه من أحداث وبما يبعث فى نفسى من عواطف لا تريد أن تنتهى !

فى البداية كنت أحاول أن أمسك بهذه اللحظة ، أقف فى وقدة الشمس فى الخلاء ، أرقب حركة ظلى البطيئة من الغرب الى الشرق حتى تجىء اللحظة الموعودة ، اللحظة التى أشعر شعورا قويا بأن الله قد خلق فيها الدنيا كلها ، أو أنه بعد أن انتهى من خلقها

اختارها لتكون لحظة البداية لحركة الكواكب فى السماء ، ولكن هذه اللحظة كانت لاتكاد تحل حتى يكون الدوران قد حل بى ، فأهتز اعياء تعبا من الوقوف والتصلب تحت وقدة الشمس ولا أكاد أسترد توازنى حتى أجد أن اللحظة الموعودة قد أفلتت ومضت خلف الظلال فى اتجاه الشرق !

وعبثا كنت أحاول أن أمسك بهذه اللحظة التى توشك فيها الظلال أن تختفى ، وأن يغمر الضوء كل شىء !

عبثا كنت أحاول أن احتفظ بتوازنى فى اللحظة التى تنتصب فيها الشمس فى منتصف السماء ويصبح الشرق والغرب مثل كفتى ميزان متوازن !

ولا أدرى متى بدأت أضيق بهذه اللعبة التى لا يشاركنى فيها أحد ، وأشارك فى لعبة أخرى يشترك فيها كل الأولاد ! ففى وقت الزوال .. بل قبله بنصف ساعة يتهيأ سيدنا لصلاة الظهر ، يغادر « المكتب » الى المسجد البعيد ، مصطحبا أحدنا ليقوده فى رحلته التى هى فى نفس الوقت فسحتنا فرغم ما يلقى به من تحذيرات وأوامر للعريف الذى ينوب عنه فى حفظ النظام حتى يعود من صلاته ! فاننا كنا نعتبر هذا الوقت فسحتنا خلال النهار ، وفى هذه الفسحة يتسلل الأولاد وعلى رأسهم العريف نفسه الى ترعة « البوهية » التى تمر بقريتنا ، وتحت شجرة توت ضخمة يتجرد الأولاد من ثيابهم فى سرعة البرق ، ويقذفون بأنفسهم فى الترعة يتسابقون فى العوم والغطس واللعب فى الماء ، ويكتشفون أجسادهم وقواهم ، ويروون مغامراتهم الجنسية المبكرة ! وكانت مشاركتى لهم فى هذه اللعبة لا تتجاوز حدود التفرج عليهم ، فتحذيرات أمى قوية وواضحة بعدم النزول فى الترعة وأسبابها

عديدة ، ما كنت أعمل حسابه منها هو خوف الغرق ولكن الأولاد لا يغرقون ، لقد تعلموا السباحة ، فلماذا لا أتعلم مثلهم ومنهم !!

لم أستطيع مقاومة الاغراء ، فمنظر المياه المتدفقة فى الترعة لا يعادله فى الجمال الا منظر الأولاد وهم يشقون بأجسادهم هذه المياه المتدفقة !

سحر العوم ، ذلك ما أذكره الآن فى وضوح ، وما أذكر تأثره على نفسى ، حركة الجسم فى الماء ، تناسقه واتزانه فى هذه الحركة ، التوافق بين ذراع وقدم ، وحركة الذراع والقدم الأخرى ، ما يبدو من الأولاد هو نصفهم فقط ودائما يغيب نصف حين يظهر النصف الآخر ، حركة المياه وصوتها وهى تتوافق مع حركة اليدين والقدمين كتلة من المياه ترتفع بنفس المقدار حيث تغيب قدم أو ذراع ، وتتحرك الكتلة بحركة الجسد العائم فى أى اتجاه ، هذه المواكب الطافية من الجمال والروعة هو ما تخافه أمى وتحذرنى مثله !

حين قال لى أحد الأولاد مرة : أمك لا تجىء الى هنا ، ولن نخبرها ، ثم أضاف مشيرا الى شاطىء الترعة .. سوف أعلمك هنا بجوار الشاطىء .. لا تخف !

اعتبرت ذلك وعدا صادقا ، ولكن مياه الشاطىء الضحلة بدت لى خالية من كل سحر حين تجردت من ثيابى ، وبدأت العوم ، أكد ولد آخر :

– لن تتعلم الا هناك فى المنتصف ، المياه الجارية والعميقة تحملك وحدها ، وتعلمك وحدها ، ونحن معك .. لا تخف !

وبدا لى الأمر شائقا وسهلا واندفعت الى قلب الترعة لأجدنى بعد لحظات أغوص فى الأعماق ، وألمس بقدمى أرض الترعة ،

وبكل ما أملك من قوة دفعت بجسمى الى سطح المياه لألتقط أنفاسى، وأرى الدنيا ربما لآخر مرة ، قبل أن أغوص مرة أخرى فى الأعماق !

كم مرة قمت فيها بهذه المحاولة ، وكم من الوقت أخذت ؟ لا أدرى !

ولكن ثمة شىء أدريه بوضوح .. أراه وأكاد ألمسه بحواسى كلها رغم السنين ، كنت أدرك أننى أغرق ، وأننى سوف أموت بعد لحظات .. رأيت خلالها أمى وأبى ، رأيت حيانى كلها ، رأيتها بالعرض لا بالطول ، الأيام فيها متجاورة لا متتابعة ، رأيتها بلا زمن، لحظة واحدة ملأى بكل شىء ، ولم تكن هذه اللحظة تفقد شمولها الغريب الا فى المرات التى أقفز فيها الى سطح المياه لأبصر جزءا صغيرا مما أراه حين أغوص ، لحظة واحدة رائعة ومخيفة كأنها لحظة الزوال ، ولكنها لم تهرب منى هذه المرة !

المياه جدران زجاجية بها فقاقيع تتحرك أعلى وأسفل ، أرى من خلالها كل شىء مر بى كل شىء سوف يمر ، رأيت جسدى ملقى على الشاطىء ، ميتا بلا حراك ، وسط حلقة من الصغار والكبار ، رأيت أمى وأبى العجوزين يشقان الحلقة التى تحدق بى من الناس ، أمى وأبى كما لم أبصرهما فى حياتى من قبل فزعين مروعين ، بلا غطاء للرأس أو القدم ، ولكن هذه اللحظة كانت خادعة مثل لحظة الزوال فلم تدم ، ربما لو بقيت لأبصرت خلال الجدران الزجاجية ، والفقاقيع التى تتحرك أعلى وأسفل كل ما وددت أن أراه بوضوح فى طفولتى وربما بعد هذه الطفولة !

ما حكاه الأولاد بعد ذلك كان مختلفا ، فبعضهم يؤكد لى أنه كان فى طوقهم انقاذى بسهولة ، وأن كل واحد منهم قد أشرف على الغرق مرة واحدة على الأقل قبل أن يتعلم ، وأن المصادفة وحدها

هى التى ساقت الحاج « أحمد » جارنا الذى يبلغ الستين من عمره من الحقل فى غير وقت عودته ليرانى وأنا أطفو وأغيب فى قلب المياه فيندفع بثيابه الى الترعة لينتشلنى منها !

فتبدو المسألة وكأنه هو الذى أنقذنى !

وبعضهم يؤكد أنه لولا عودة الحاج أحمد فى هذه اللحظة لكنت من الموتى دون أدنى شك .

ولم ترهبنى كلمة الموت هذه . كان وجه الحاج أحمد الذى آلفه كوجه أبى ، والذى كان يحبنى كأحد أولاده ، هو أول وجه رأيته حين فتحت عينى ، وحين بدأت أفكر كان أول ما فكرت فيه هو أن الحاج أحمد سوف يخبر أمى وأبى ، لحظتها رجوته ، توسلت اليه بدموعى ألا يفعل ، ووعدنى من خلال دمعتين تعلقتا بأهدابه أنه لن يخبر أحدا اذا وعدته بألا أنزل مرة أخرى فى مياه الترعة !

وحملنى أمامه فوق حماره الى البيت ، وفى اليوم التالى حين واجهت أمى عرفت أن الحاج « أحمد » أخلف وعده لى ، لا أذكر الآن كل ما قالته لى ، ولكنى أذكر أنها لم تضربنى ، ولم تخبر أبى ، ولكن ماأذكره فى وضوح هو أنها كانت خائفة خوفا نفذ الى قلبى ، وانغرس فيه كسكين ، كدت أقول لها :

ـ ان الموت ليس مخيفا كما تظنين ، ولكننى لم أجرؤ على أن أفتح فمى بكلمة وهى تتحدث الى حديثا طويلا لا أذكره الآن ولكننى أحسست منه أنها تخاف الموت جدا ، تخافه على وعلى نفسها ، وأنها أهدتنى هذه الخوف عليها وعلى نفسى !

بعد هذه الحادثة اكتفيت بمكانى على الشاطىء ، أرقب الأولاد وهم يتجردون من ثيابهم ومخاوفهم ، ويشقون المياه بأذرعهم ويندفعون فيها بضربات أقدامهم ، متذكرا تلك اللحظة التى كدت

فيها أن أمسك بوقت الزوال ، اللحظة التى تتجاور فيها الأيام ولا تتتابع وتعلو حوائط المياه الزجاجية كل شىء ولا يتحرك فى العالم سوى فقاقيع من أسفل الى أعلى ، فقاقيع تبصر خلالها كل ما حدث ويحدث ، تتحرك فى جمال لا يدانيه الا حركة الأجساد وهى تشق صفحة المياه فى توافق وروعه !!

أى شىء كان يدفعنى الى هذا المكان من الشاطىء ؟ متحملا سخرية الأولاد المرة ، متعذبا بخوفى من الغرق أمام عيونهم مرة أخرى !

لاتكاد لحظة الزوال تقترب ، ولا يكاد « سيدنا » يغادر « المكتب » حتى أسبق الجميع الى هناك ، الى مكانى الأمين على شاطىء الترعة أنطوى على سرى الذى لا أجرؤ على البوح به لأحد !

سحر العوم ، وسحر الموت معا ، حبى وخوفى منهما ، لماذا يتلازمان ؟ لماذا يصبحان شيئا واحدا كما تصبح كل الأيام فى لحظة الزوال ٠

هل أجرؤ على أن أقول لهم ، للأولاد ، كيف أصبحت أنتظر لحظة الزوال على أحد من الجمر ، وكيف تسحرنى أشعة الشمس وهى تتكسر على تموجات المياه المتدفقة فى الترعة كما يسحرنى الرذاذ المتطاير تحت ضربات أقدامهم وأذرعهم ! ٠٠ وأن الصوت ٠٠ صوت المياه وصورتها ٠٠ يتسللان الى رأسى كلما اقتربت لحظة الزوال ، ويتحولان الى نداء قوى أكاد أسمعه مختلطا بروائح العشب النامى على ضفاف الترعة ودوائر التراب التى تثيرها أقدام الماشية الذاهبة الى الغيط والعائدة منه ! تلك الدوائر التى أتابعها فى ذهول وهى تغرق فى قلب الترعة حتى تستقر فى أرضها ٠ وتبقى هناك الى أن يخرجها الفلاحون الى الجسور فى أيام الجفاف لتعاود الرحلة

الى قلب الترعة فى فصـــول الصيف ، كأنما يجتذبها ذلك النـــداء الذى يجتذبنى !

فجأة قال أكبر الأولاد وهو عاريا على الشاطىء :

ـ يا بلهاء ، العوم الحقيقى ليس هنا ·· ثم أشـــار بيده الى حيث تبعته عيون الأولاد ··

ـ انه هناك ·· عند الهدار !

ثم تابع وهو يدخل فى جلبابه :

ـ الذين يعرفون العوم حقا ·· هم الذين يجيئون !

ويبعه عـــدد من الأولا الذين يناهزونه طولا وعمرا ·· وتبعتهم متحملا مرارة النظرات والكلمات :

ـ دعوه يجىء !

ـ من يحرس لنا الملابس ؟

ـ من يتفرج علينا ؟

ـ لا أحد يغرق على البر !

ـ لا أحد يخبر أمه !

عند الهدار يوجد موت حقيقى ، وسحر حقيقى كذلك !

الهـــدار بنـــاء قوى يرتفـــع فى قلب المـــاء قرب الجسر حيث تتفرع منه البوهية ترعة جانبية صـــغيرة تمتد فى قلب الحقول لريها وفوق الهـــدار يقف الأولاد عرايا قبـــل أن يقفـــزوا فى قلب الترعة الكبيرة ·· صـــانعين بأجســـادهم فى قلب المياه فجوة كبيرة لا تلبث أن تستوى فوقها المياه ·· المهم ارتفاع القفزة واحكامها ، المهم أن

تنتهى القفزة أبعد قليلا من الدوامة الهائلة التى يصنعها تدفق المياه فى فتحة الهدار ، فلو أخطأ أحدهم تقدير المسافة ! ولو سقط فى قلب الدوامة فلن يستطيع أقوى الرجال أن ينقذ نفسه أو غيره ، فالدوامة سوف تجتذبه حتما الى فتحة الهدار ليسدها أو ينفذ فيها بجسده وهو فى كل حالة هالك لا محالة !

هنا السحر والموت والبطولة جميعا ، هنا وجه الماء أحفل بالاثارة فالتيارات الجانبية والحلزونية التى تصنعها الدوامة تصنع آلاف التموجات الرقيقة والعنيفة هنا أو هناك ، وتحول أشعة الشمس الى آلاف الومضات الحافلة بالسحر والاثارة ، هنا صوت المياه متعدد الطبقات ، متعدت المصادر ، يصطفق فى أعلى الترعة حين تشتد الريح ، ويخر من فتحات الماسورة التى بليت ، ويهدر فى مدخلها ومصبها ، ولكن صوته حين يصب منها فى الترعة الجانبية أوضح وأخفت منه حين يندفع الى فتحة الهدار كأنه نداء مكتوم !

هنا موت حقيقى وسحر حقيقى كذلك ! ولكن الأولاد لا يموتون .. يتجردون من ثيابهم كأعواد البوص ، ويقفزون كالأسماك والطيور ويختفون فى الماء كأنهم لم يكونوا ، وفوق أجسادهم الغائصة يواصل الماء تدفقه ، وجريانه ، غير عابىء بتلك الأجساد الغريبة التى تشقه وتتحرك فى داخله وفجأة يظهرون ، الرأس أولا ، وأحيانا تظهر الذراع أو فقرة فى الظهر .. والفارس حقا هو الذى يظهر أخيرا ، هو الذى يقاوم الى أقصى حد ضغط المياه ، وحاجته الى الهواء وتتحول الثوانى الى دقائق ، واللحظات الى خفقات تصخب فى صدرى ، فالحد الفاصل بين أن يصبح أحد الأولاد فارسا أو غريقا لا يكاد يحس !

ولكنهم جميعا يواصلون الظهور فوق سطح الماء ، يمتطون سطوة المياه ، يضربون بأذرعهم وأقدامهم فى قوة واقتدار ، يتبخترون

كالعرائس ، ويصبحون جزءا لا يتجزأ من ذلك السحر الحقيقى ، بل يصبحون أكثر الأجزاء روعة وكمالا !

لا أحد يموت سواى ، هنا على البر أغرق فى الخجل والخوف والنشوة ، وأيضا فى كلمات أمى ، لو كانت أمى من النساء اللاتى يخرجن الى الترعة .. لأحسست مثلى بروعة المياه ولكانت أقدر على أن تفهمنى لو بحت لهـــا بالسر ، سر ذلك النـــداء الخـفى الذى يجتذبنى الى هناك فى لحظة الزوال ، والذى أصبح الآن يجتذبنى فى كل لحظة من النهار !

فنداء الهدار أقوى وأعمق وأحفل بالروعة والاثارة !

هل ذلك النداء نفسه هو ما يجتذب الأولاد الى الهدار ؟

وهل يوشك الولد الذى يبقى غائصا أطول وقت ممـكن أن يمسك بلحظة الزوال الغامضة ؟

هل أبصر مثلما أبصرت كيف تصبح الأيام كلها لحظة خاطفة زاخرة بكل شىء ؟

وهل يفهمنى اذا حكيت له ؟ أم يواصـــل نظراته السـاحرة وتصبح مخاوفى وأوهامى حكاية يتندر بها الأولاد ؟

أم أن لحظة الزوال لا تبـوح بسرها الا لمن يشرفون على الغرق حقا أو يغرقون ؟

لماذا لا أجىء الى هنا فى غير الوقت الذى يجىء فيه الأولاد ؟
متى بدأ هذا السؤال يقلقنى ؟

لا أذكر ، ولكننى أذكر الآن أنه بـدأ يلـح فى الأيـام التى ترتفع فيها مياه الترعة الى حافة الجسر ، حين يحل دور الرى مرة

كل أسبوعين ، تواصل المياه ارتفاعها وجمالها الآسر ، ويواصل الهدار نداءه المكتوم ، ويواصل قلبى دقاته ، يرتفع فيه الشوق والحنين الى رؤية المياه وهى توشك أن تغرق الهدار ذاته !

وأتسلل وحدى هذه المرة فى غير وقت الزوال ، أتوقف مسحورا أمام الهدار ، حيث يبدو سطح الماء صافيا متألقا ، أهنا يكمن الموت فى قلب هذا الجمال ؟ كنت أدرك أننى سأموت حقا لو فعلتها وحدى ! وقبل أن أتعلم العوم ولكن الموت الذى كدت أعرفه لم يكن مخيفا كهذا الموت الذى رأيته فى عيون أمى ، فى خوفها منه ، أيوجد فى هذه الدنيا موت كثير ؟

مرة وأنا فى الفراش ، بجوار أمى ، فى سكون الليل تناهى الى أذنى صوت الهدار ، وتراءت لى صورة المياه فى ضوء القمر ، وازددت التصاقا بأمى ، كدت أسألها اذا ما كانت تسمع شيئا ، كدت أبوح لها بسرى ، بما يشدنى الى الهدار ، وبما يبعدنى عنه ، وبأننى سوف أموت غرقا حين أذهب ، وخجلا حين أهرب ، وسوف أتمزق لا محالة حين أبقى مترددا بينها وبينه !

ولكننى لم أقو على أن أفتح فمى بكلمة واحدة !

فى المساء أسلم نفسى لأمى ، وفى الصباح أسلمها للهدار ، ليس فقط فى ساعة الزوال تكرر خروجى من « المكتب » ألتمس الأسباب والأعذار للخروج ، وأمضى الى الزوال هناك تشدنى قوى غامضة ، أتوقف أمام الهدار ، أرى وأسمع وأشم وأرتعد خوفا ونشوة ، وأحيانا أبصر نفسى عاريا فوق الهدار ، قافزا فى رشاقة واحكام أبعد قليلا من الدوامة التى تدور بلا تعب ، بلا توقف ! أسبح مثل كل الأولاد ، أحقق التوازن الرائع ، أصبح جزءا من الجمال الذى أراه ، تتوافق حركات يدى وقدمى ، أعارض التيار حينا

وأسايره حينا حتى أصل الى الشاطىء الآخر ، أتقلب فى ترابه كما يفعل الأولاد ثم أعود متخلصـا من التراب والحوف جميعا !

ويمر فلاح عجوز خلف بقرته ، وينظر متعجبا :

ـ لماذا تقف هنا ؟ هل ضاع منك شىء ؟

ولا أحـد يقف فى هذا المكان الا من يريـد أن يعوم أو يعبر الترعة !

وأكتشف أنه ليس من السـهل أن أجىء كل يوم ، وأظـل واقفا فى نفس المكان • فلن يفهم أحد معنى هذا الوقوف ، وتتكرر رؤية الناس لى ، ويتكرر سؤالهم ، وتنتقل النظرة الساخرة من عيون الأولاد فى المكتب الى عيون الناس فى القرية ، هل توجد فى النهار ساعة لا يمر فيها أحد بالهدار ؟

نعم انها ساعة الزوال يوم الجمعة ، فى هذه الساعة تذهب قريتنا كلها الى المساجد الصغار قبل الكبار ••

فى هذه الساعة أتسلل الى الهدار ، فأبى مريض ولا يذهب فى هذه الأيام لصـلاة الجمعة ، ولن يـكون هناك من يحملنى على الذهاب الى المسجد ، وفعلتها فى أول جمعة !

وجدتنى أتسلل الى هناك ، أتوقف أمام الهـدار وهو يـكاد يغرق ، لا أحـد يمر ، وبدأت أتلفت يمينا ويسـارا ، لا أدرى هل أخشى أن يرنى أحد ، أم أرجو ذلك ، فى مرات سابقة كنت أبدو كما لو كنت أنتظر كلمة واحدة من أحد المارة لأستند اليها وأعود ، لأتخلص من سحر الهدار وقبضته القاسية ، أما اليوم فلا أحد هناك سواى ، وسوى الهدار ، وتقترب لحظة الزوال ، ويوشك ظل الهدار أن يختفى ، والمياه فى تدفقها الدائم تكاد تغرق الشـاطىء نفسه ، واحساس غامض بالنشوة والخوف ، يغرقنى السكون الشامل يحيل

أصوات الهدار المتعددة المصادر والطبقات الى أغنية شاملة للحقول كلها ، للقرية للأرض وللسموات ، أغنيـة تتسـلل الى حواسى ، تجرى فى دمى ، تدق فى صدرى ، الحقول تنتصب خلالها الزروع والأشـجار تتطاول لتبصر صـفحة الماء المرتعشة بآلاف التموجات الرقيقة والعنيفـة ، لتبصرنى وأنا واقف أمام الهـدار ·· لتبصر اللحظة الفاصلة فى علاقتنا !

قفزت من فوق الهدار ، وسبحت الى البر الثـانى ، وعـدت متخلصا من ترابه وخوفى عشرات المرات ، وأنا جامـد فى مـكانى لا أتحرك · ولا يتحرك حولى ظل انسـان أو حيوان ولا يتردد سوى صوت الهدار المتعدد المصادر والطبقات ، وحين امتدت يدى حقيقة لترتفع بذيل جلبابى ، ارتفع فى سماء القرية صوت حادثاقب ، خلته صوت المؤذن لصلاة الجمعة ، يعلن أن لحظة الزوال قد حلت ، ولكن الصوت الحاد الثاقب يتكرر ارتفاعه وانخفاضـه فى ايقاع يختلف عن ايقاع الأذان ، ذلك الصوت أعرفه ·· وآلفه ·· يرتفع فى قريتنا حين تحل كارثة ، يموت انسان أو يندلع حريق ، أو تهلك ماشية ، وتلفت أبحث فى سماء القرية عن لون الدخان أو رائحته ، فلم أجد ·· هو الموت اذن ·· وعدت أتلمس مكان الصـوت الثاقب الحاد ، ولم أصدق حين لاحظت انه ينبعث من ناحية شارعنا ·· بيتنا ··

أيمكن أن يكون أبى ·· ؟ ولم أكمل السؤال ·· ولم يكن هنـاك من أسـأله ! تراخت يدى عن ذيل جلبابى · ابتلع الصـوت الحاد الثاقب كل صوت ، ابتلع صوت المؤذن وصوت الهدار معا ! تراخت قبضة الهـدار على قلبى وبقيت قبضة الخوف ، خوف حاد ثاقب لانشوة فيه ولا سحر !

مضيت صوب القرية ، أنتزع خطواتى فوق التراب السـاخن ، أهتدى بالصـوت الثاقب الحـاد ، أتأكد فى كـل خطـوة من مكانه

المشئوم ، شارعنا ، بيتنا ، لا أحد هناك أستوضحه الرجال فى المساجد ، النساء فى البيوت ، كلب وحيد يطارد عنزة ، وحين يلحق بها تتوقف فجأة وتنطحه بقرنها فيهرب أمامها ويكف عن النباح ، طفل يلعب فى التراب أمام داره ولا يعى شيئا ، امرأة تسأل جارتها من فوق السطوح عن الميت فتجيب عن سؤالها بسؤال ، لم أكن أدرك أن دارنا بعيدة هكذا فى أقصى القرية ، لم أشعر بالطريق وأنا فى طريقى الى الهدار !

الناس فى المسجد القريب من شارعنا أنهوا صلاتهم بسرعة جميعهم يتجهون الى شارعنا بدلا من أن يتجهوا الى بيوتهم ! لا أقوى على السؤال ولا أحد يتطوع بالجواب ..

كأنهم جميعا يبحثون مثلى عن الجواب فى شارعنا .. فى شارع الموت !

سرت مع السائرين ، توقفت حين توقفوا ، الصوت الثاقب الحاد ينبعث من بيت جارنا الحاج أحمد !

ـ الله يرحمه ، كان فى أحسن صحة !

هو الذى مات اذن ؟

هو الذى فعلها فى حياته وفى موته !

الناس يجلسون أمام البيت ، يعزون ويتقبلون العزاء ، ولم أجلس حيث جلسوا ، دخلت حيث يدخل أقاربه .. أقرب أقاربه .. دخلت الى الحجرة التى قالوا انه مسجى فيها ، لم أكترث بنظرات الاستنكار فى عيون النساء والرجال من أقاربه !

ولم أتوقف حين امتدت بعض الأيدى وبعض الكلمات ..

ـ الى أين ؟

ـ كنت أريد أن أراه ٠٠ أن أرى الموت ٠٠

بدا لى وهو راقـد فى فراشه ومغطى بملاءة بيضاء كثر طولا

ـ ماذا تفعل ؟

لم أجب على السـؤال الذى ارتفع من هنا وهناك ، كنت أقبل الوجه السـاكن البارد ، وأحاول عبثا أن أبصر شـيئا وراء العينين المغمضتين ٠٠٠

لا أحـد غيرى وغيره يعرف السر الذى بيننا ، السر الذى أعلنه الموت أو طواه الى الأبد !

كنت واثقا أنه لن يخبر أمى هذه المرة ، ولكننىأنا الذى سوف أخبرها فى وقت قريب وقت تحدد فى نفس اللحظـة التى قبلتـه فيها ، وأعدت فيها الغطاء على وجهه لينام نومه الطويل !

★★★

بعد شهور من موت جارنا الحاج أحمد قلت لأمى بلا مقدمات :

ـ اليوم كنت أعوم فى ترعة البوهية !

ثم أضفت :

عبرتها عدة مرات ! أتسمعين ؟ عدة مرات !

ـ ماذا تقول ؟ أنت ؟ كيف ؟

ولم أجب ، كان مجرد وجودى أمامها ردا !

قالت أمى كلاما كثيرا لم أسـمعه ، كنت مأخـوذا بملاحظـة شىء آخر غير كلامها ، شىء فى عينيها ٠٠ أعماق عينيها ، أبصرت خوفهـا القـديم العظيم على وعلى نفسـها يومض فجأة كحريق ثم ينطفىء !

★★★

كنت أعتقد أن علاقتى بوقت الزوال سوف تجد نهايتها الطبيعية مثل غيرها من العلاقات !

ولكن عاطفتى نحوه ، عاطفتى التى تنطوى على التأمل والشغف والحنين والخوف لا تزال تحرم هذه العلاقة من أن تجد مثل هذه النهاية !

منذ شهور قليلة وجدتنى أروى لأمى العجوز التى لا تزال تعيش معى هذه القصة من جديد !

قالت : أمى

ـ يرحم الله جارنا الحاج أحمد .

وراحت تروى ذكرياتها عنه ، وفجأة صمتت أمى قائلة :

ـ لكن ما الذى جعلك تذكر هذه القصة فى هذه الأيام ؟

ولم أجد ردا !!